الدكتور عماد الدين الخليل

معجزة في الضفة الغربية



الموضوع: أدب

العنوان: معجزة في الضفة الغربية

التأليف: الدكتور عماد الدين خليل

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

الورق أبيض

ألوان الطباعة لون واحد

عدد الصفحات 96

القياس 15×22

التجليد غلاف

الوزن 140 غ

حقوق الطبع محفوظة

التنفيذ الطباعي :
مؤسسة جواد للطباعة و التصوير
التجليد :
عادل قزي

دار ابن كثير
للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com


ISBN: 978-9953-520-52-0

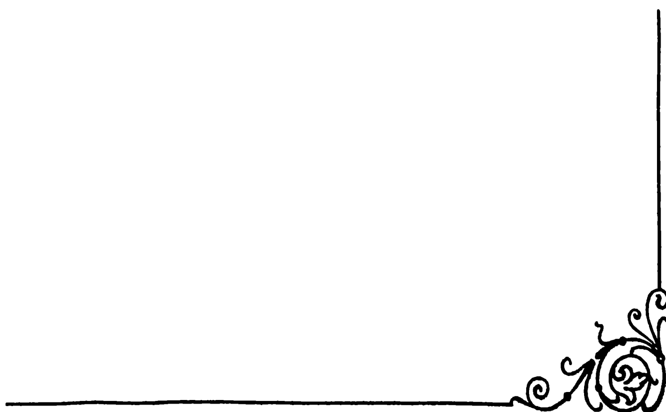
د . عماد الدين خليل

معجزة في الضفة الغربية

دار ابن كثير



بسم الله الرحمن الرحيم



معجزة في الضفة الغربية

المشهد الأول

القدس في ربيع عام ١٩٧٦[(١)] **(غرفة جلوس في دار اعتيادية تفتح نافذتها الواسعة على الطريق العام؛ الذي لا يرى سوى جانب محدود منه... هناك في زاوية الغرفة، إلى الجهة اليسرى، منضدة رصت عليها الكتب بدون عناية . تنتشر في أطراف الغرفة مقاعد غير منسقة .. نلمح الأب وهو يجلس إلى جانب المنضدة يطالع في كتاب، تبدو عليه ملامح المرض والإرهاق.. يلتفت بين الحين والآخر إلى ابنه(سمير)؛** الذي لم يتجاوز السنوات التسع وهو منبطح أرضاً، يعيد لعبة **(الميكانو)** دون أن يصل إلى نتيجة .. في الجهة الأخرى، نلمح الأم وهي تعكف على نسج قطعة بين يديها ...)

الأب: **(يقفل الكتاب هنيهة)** لقد صدر قرارهم إذاً؟

الأم: **(ترفع رأسها، ثم ما تلبث أن تعود إلى عملها دون أن تجيب).**

الأب: أقول: لقد صدر قرارهم، وها هم بعد أيام ثلاثة فحسب يبدؤون التنفيذ اللئيم..

---

(١) هذه المسرحية مستوحاة من وقائع شهدتها الضفة الغربية ذلك العام.

الأم: هذا أمر متوقع، فما داموا قد احتلوا الأرض، فإن لهم أن يفعلوا فيها ما يشاؤون..

الأب: **(بعصبية)** ولكن إجراءهم الأخير، لن يمضي دون عقاب..

الأم: أعتقد أنك قد أديت دورك بما فيه الكفاية.. ولك الآن أن ترتاح.. إن لديك صبيين، عليك أن تنصرف للعناية بهما..

الأب: **(ينظر عبر النافذة)** كان ذلك منذ زمان بعيد.. كنت أملك القدرة على حمل السلاح.. والضرب.. لقد صنعت وإخواني في سني الجولة الأولى، ما عجزت الجيوش الرسمية عن فعله.. إن القدس العربية نفسها مدينة بصمودها لجهادنا المرير، فضلاً عن عدد آخر من المدن والمواقع.. لم يكن بمقدور الحكام الذين سيروا الجيوش، أن يحموا شبراً واحداً من الأرض.. لقد كانوا دمى تحركها أصابع الكبار.

الأم: ليس هذا أَوان النقد والتحسر.. إن أمامنا كارثة جديدة، يتوجب التفكير فيها.. إنها تصنع أمام أعيننا..

الأب: **آه لو أسترد بعضاً من قدرتي على الحركة.. فقط من أجل أن أشترك معهم في مسيرة الغضب، دفاعاً عن**

حرمات الله. . إن الحزن يأكلني من الداخل يا أم سامر، دون أن أستطيع فعل أي شيء. . أتعرفين؟

الأم: **(ترفع وجهها إليه ثم تعود إلى عملها دون أن تجيبه بشيء)**

الأب: كنت أتلقى صوت الرصاص كما أتلقى إيقاعاً موسيقياً منغماً. . كما أتلقى لحناً مؤثراً. . كان يوحدني حقاً، ويمنحني قدرة أكبر على الهجوم والاقتحام. . إنها النشوة الكبيرة؛ التي يعرفها جيداً المتعبدون، والفنانون، والمقاتلون !! ماذا لو طرقت سمعي اليوم أصوات الرصاص مرة أخرى؟ ماذا لو دهمتني النشوة الكبيرة تلك، وأنا أعاني هنا سجن المرض وعجز القعود؟ !

الأم: **(وهي تنتزع ابتسامة مقتضبة)** حسناً. . سأضطر إذاً إلى إقفال النافذة جيداً، خوفاً من أن تدفعك النشوة إلى أن ترمي بنفسك منها على جموع المتظاهرين. . أنا متأكدة من أن الرصاص سيعزف عما قريب !!

الأب: **(بنفس النظرة البعيدة)** النافذة؟ آه. . لقد ذكرتني يا أم سامر. . كنت وثلاثة من إخواني مكلفين باقتحام تحصينات أحد المواقع اليهودية وتدميرها. . رفعت

رأسي فجأة إلى إحدى النوافذ.. كان أحد الحراس اليهود يقبل رفيقته في السلاح.. ترددت قليلاً بين أن أغمض بصري حتى ينتهي العناق المثير، وبين أن أضرب بسرعة حتى لو دفعني ذلك إلى اقتراف إثم المعاينة والتحديق المركز(**يضحك**).

الأم: واخترت الثانية.. طبعاً..

الأب: لم يكن ثمة خيار.. ثم إنني أنزلت بهما القصاص العادل؛ الذي يتوجب عليهما مرتين !!

الأم: كيف؟

الأب: لقد رجمتهما بالرصاص(**ما يلبث تنهد عميق أن يكتسح ضحكته**) أما الآن، فما الذي أستطيعه. إن داء السكر اللعين ينهش في كياني.. ليس لي إلا أن أجلس هاهنا وأطلق الحسرات.. حقاً، لم يعد أمامي سوى أن أنصرف للعناية بالصبيين.. أين ذهب سامر؟

الأم: لقد نزل بعربته الخاصة إلى خارج الدار؛ لكي يتجول قليلاً.. مسكين.. لقد سئم الجلوس في الدار..

الأب: منذ أن أصيب بالكساح ـ ولما يتجاوز السنتين من عمره ـ وأنا أقول: لولاي لما عرف العذاب، وها أنا ذا أتعذب مرتين كل يوم.. لقد نلت جزائي..

الأم: إنها إرادة الله يا أبا سامر.. وإنك لم تأل جهداً في محاولة إنقاذه.. فلا داعي لأن تتألم.

الأب: صبي لا يقدر على الوقوف، يقضي سني عمره الطويل قاعداً.. إننا ـ وقد وهبنا الله القدرة على الحركة ـ تكتسحنا لحظات نكاد نختنق فيها سأماً.. فكيف.. بهذا المسكين؟

الأم: ومع ذلك، فإنني ألمح في عينيه إصراراً.. إنه متفوق في دروسه، ومن يدري، فلعله في حياته المقبلة يكون أكثر توفيقاً..
(تسمع عن بعد أصوات مختلطة مبهمة، تزداد وضوحاً بمرور الوقت..).

الأب: ها هم، الآن قادمون.. أتسمعين؟

الأم: لقد بدؤوا إذاً وفي الموعد المحدد تماماً كما أسر إلي أبو العوف.. لقد بدؤوا إذاً..

الأم: بدؤوا ماذا؟

الأب: **(غير ملتفت لسؤالها)** أن يصلي أولاد الأفاعي في المسجد الأقصى، فذلك ما لا يمكن أن يمضي بسلام.. لقد أحرقوا جانباً منه قبل سبع سنين.. أليس كذلك؟ ولكن النار قد تطهر أحياناً.. أما هذا الدنس **(بغيظ مكتوم)** فلن يصل المسجد هذه المرة..

(الأصوات تتعالى.. تقطعها بين الحين والأخر زخات من الرصاص).

الأم: أتسمع هذا الصراخ يا أبا سامر؟

الأب: وكيف؟ إنني أكاد أصرخ معهم !!

الأم: أتراه مذبحة جديدة؟

الأب: إنها التظاهرة الكبرى؛ التي حددوا لانطلاقها الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم.. وها هم أولاء يفون بوعدهم.. إن المدينة كلها تخرج؛ لكي تصرخ بوجه بني إسرائيل..

الأم: **(تضع النسيج جانباً وتنهض)**

الأب: إلى أين؟

الأم: سآتي بسامر قبل أن يصلوا.

الأب: دعيه، فليبق هناك.. ليشارك أبناء بلده بعينيه على الأقل.. لا أريد لأبنائي أن ينعزلوا عن أبناء شعبهم، ويقفوا خارج الإطار.. هذا يوم يتوجب فيه ـ حتى على المرضى والمقعدين ـ أن يخرجوا، لكي يضموا صوتهم إلى أصوات إخوانهم، ولو حملوا على الأكتاف..

الأم: إن ابنك سريع الانفعال.. وإنني أخاف أن

يضطرب به الأمر فيصيبه مكروه. .

الأب: لقد أصابنا جميعاً، المكروه الكبير، إنهم يريدون أن يمارسوا طقوسهم في المسجد الأقصى، فأي مكروه أكبر من هذا؟.

(يترك سمير لعبه، ويقفز إلى النافذة مصيخاً إلى الأصوات؛ التي ازدادت قوة، وأصبحت كهزيم الرعد).

الأم: **(تناديه)** لا تطل برأسك أكثر مما يجب يا سمير؛ لئلا تصيبك رصاصة طائشة. . إنهم يقتربون، ولا أظن أن الإسرائيليين سيكتفون بالتفرج عليهم.

الأب: ألم تسمعي صوت زخات الرصاص؟ إنهم يسعون لإخافتهم وحملهم على التفرق. . ولكنهم، إذا جد الجد، وأفلت الزمام، ومضت التظاهرة الكبرى إلى غايتها، فإنهم سيحولون فوهات رشاشاتهم قليلاً إلى أسفل، وهم على استعداد لأن يحصدوا منهم المئات. .

(تهرع الأم إلى النافذة، وتتوسل إلى سمير أن يبتعد قليلاً).

سمير: **(بصوت طفولي عذب)** أريد أن أشترك معهم يا أبي.

الأب: فيما بعد يا بني، فيما بعد. . إنك صغير بعد.

سمير: إنني أعرف ثلاثة من رفاقي في المدرسة، حدثوني يوم أمس أنهم سيخرجون مع أمهاتهم وأخواتهم وإخوانهم الكبار.. كانوا فرحين.. ولم يعد بمقدورهم في الدروس الأخيرة أن يفهموا حرفاً واحداً مما يقوله مدرسوهم.. وعندما غادرنا المدرسة، التفت بعضهم إلى بعض فرحين، وقالوا: غداً سنضرب اليهود بالحجارة..

الأب: ولكنك أصغر منهم بكثير.. إنهم في الصف السادس.. أليس كذلك؟ أما أنت، فلا تزال بعد في الثالث.. وإنني أعدك ـ إذا ما كبرت قليلاً ـ بالخروج معهم كلما أردت، وسوف أجعلك تضربهم بالرصاص بدلاً من الحجارة..

(تكون الأم قد اختفت خلال الحوار الأخير.. تعود وهي تعين ابنها الكبير سامر؛ الذي جاوز الثامنة عشرة من العمر على الصعود)

الأب: أظن أنه قد اطمأن بالك الآن.. زوجك وصبياك في الغرفة، بعيداً عن الأذى، وليذهب الآخرون إلى الجحيم..

الأم: حاشا لله.. يا أبا سامر.. حاشا لله.. أما أنت، فإنك أديت دورك بأمانة وشرف، ولو كان بمقدورك أن تواصل الدرب، لما وقفت لحظة في طريقك..

ولكنه المرض القاسي.. وأما هذان، فأحدهما طفل بعد.. والآخر(**تخفض صوتها**) كسيح..

سمير: لم أعد طفلاً يا أماه وسوف أخرج معهم.

سامر: (**يدفع عربته جانباً، ويتحرك باتجاه أخيه وهو يضحك**) أتذكر ما حدث يوم أمس، عندما ثارت أعصابك؛ لأن البيضة؛ التي ستفطر عليها لم تسلق جيداً؟

سمير: (**لا يلتفت إليه موجهاً الحديث إلى أمه**) سأخرج معهم.. يعني سأخرج معهم..

سامر: وضعت البيضة في يدك اليمنى، وسحقتها ببساطة.. وإنك في نظر أي جندي إسرائيلي، لا تعدو أن تكون هذه البيضة الصغيرة.. إنهم، سيعصرونك في قبضاتهم الغليظة (**يضحك**).

سمير: (**مستمراً**) إنني لا أطيق أن ألتقي غداً بأصدقائي، فيحدثونني عما فعلوه، وأنا أتسلى بقصصهم دون أن أفعل شيئاً.. قبل أيام، حدثني أحدهم أن يهودياً حاول التحرش بأخته، وهي تسعى لإيصاله إلى المدرسة، فما كان منه إلا أن بصق في وجه الجندي، فتلقاها هذا ساكتاً دون أن يفعل شيئاً.. عدت إلى البيت حزيناً ذلك اليوم.. وحلمت بأنني أغرز سكيناً في صدر الجندي..

(الأصوات تزداد اقتراباً.. وخلال لحظات، يرى إلى أسفل من النافذة عدد من الجنود الإسرائيليين وهم يتراجعون بسرعة، مصوبين رشاشاتهم بزاوية مائلة إلى فوق، مطلقين بين الحين والحين زخات من الرصاص... وما تلبث طلائع المظاهرة الكبيرة أن تحاذي الشارع الموازي للنافذة.. يزحف سامر؛ لكي يطل برأسه من هناك.. يستغل سمير الفرصة فينسل من بينهم دون أن يشعروا..)

صوت: سحقاً.. سحقاً.. يا صهيون..

الجمهور: سحقاً.. سحقاً.. يا صهيون..

صوت: نحن فداؤك يا مسجدنا..

الجمهور: نحن فداؤك يا مسجدنا..

صوت: اسحب قرارك يا رابين..

الجمهور: تكسر يدك يا رابين..

(زخات أخرى قاسية من الرصاص.. أكثر اقتراباً هذه المرة.. وأكثر انخفاضاً على ما يبدو..)

صوت: باسمك. باسمك... يا محمد

الجمهور: نحميك يا فلسطين..

(الرصاص ينصب بدوي مرعب.. وهو يوجه الآن أفقياً بمستوى المتظاهرين.. الأصوات المنتظمة

الواضحة تتحول إلى صراخ رهيب. . حركة المتظاهرين تضطرب، قليل منهم يتراجع إلى الوراء، ولكن معظمهم لا يبالون بالرصاص. . يمضون في تقدمهم وهم يواصلون هتافاتهم. . تلتفت الأم فجأة، وتدير عينيها بفزع في أرجاء الغرفة، بينما يلتصق الأب وابنه الكبير بالنافذة تماماً، متجاوزين أي إحساس بالخوف. . تخرج الأم من الغرفة، وتعود بعد لحظات وهي تنادي بفزع) . .

الأم: سمير. . لقد أفلت سمير. .

الأب: **(يلتفت إليها كما لو يسترد نفسه من حلم بعيد)** سمير؟

الأم: **(وقد اصفر وجهها)** لقد عملها الشقي. . سأهرع للبحث عنه.

(زخات أخرى من الرصاص المختلط بالصراخ).

الأب: **(صائحاً)** اجلسي مكانك. . أنا الذي سأخرج لاسترداده. .

سامر: **(بدون وعي)** البيضة الهشة يا أبتاه. .

(يفتح الباب بعنف على مصراعيه، يدخل أحد المتظاهرين. . رجل جاوز الأربعين من العمر،

وهو يحمل سميراً، وقد تلطخ وجهه وملابسه بالوحل والدماء. .)

الأم: **(متوسلة)** ابني!.

الرجل **(بتأثر)** لقد أصابته رصاصة جندي إسرائيلي في صدره، وهو يهرع نحوه وبيده هذه السكين.

الأب: **(مع نفسه)** كان يعالج بها لعبة الميكانو قبل قليل. .

الرجل: كادت أقدام المتظاهرين تدوسه، لولا أن أسرعت إلى التقاطه، فأشار إلى هذه النافذة **(ثم بصوت متهدج)** أظن أنه قد مات !!

الأم: **(وهي تشد شعرها)** وا ابناه. .

سامر: **(وهو يبكي بصمت)** لقد سحقوا البيضة الهشة يا أبتاه. . دعني، فسأنتقم له. .

الأب: **(بصوت يابس)** أنت؟ ! لا يا بني. . لا . .
(يتجه إلى الجثة الصغيرة، فيقبلها وهو يبكي، ثم يستل غطاء فيلقيه عليها. . ويخاطب نفسه).

الأب: هذا يوم تتفتت فيه الأكباد. . فإنا لله وإنا إليه راجعون. .
(مع انهمار الرصاص، نسمع مقاطع بعيدة من أصوات المتظاهرين).

صوت: مسراك يا قائدنا.

الجمهور: يغزوه اليوم الدجال.

صوت: نفديك يا مسجدنا.

الجمهور: بالرجال وبالأطفال!!

- ستار -

المشهد الثاني

(نفس المنظر السابق.. في اليوم التالي..

تبدو الأم وقد اتشحت بالسواد، ولكنها أكثر صبراً وتجلداً.. الأب أقرب إلى الفرح منه إلى الحزن.. أما سامر، فإنه يتحرك في الغرفة بقلق واضح.. نلمح في وسط الغرفة جثمان سمير وقد هُيِّئ للدفن، تحوطه باقات من الزهور.. من النافذة، تطرق أسماعنا أصوات حشود من الناس المتجمهرين في الشارع العام إزاء البيت..)

الأب: **(من النافذة)** ها هم قادة التظاهرة الأوفياء، يقررون القيام بتشييع بطلنا الصغير **(تتعثر الكلمات في صدره)** تشييعاً جماعياً مرموقاً يناسب الطموح الكبير؛ الذي كان يعتمل في قلبه الصغير..

الأم: **(تطل من النافذة هي الأخرى)** إنهم يتجمعون هناك؛ لكي ينطلقوا به بعد قليل في نفس الشارع؛ الذي استشهد فيه.. سأخرج معهم.. وفي ذلك عزائي..

الأب: أما أنا.. فيا لتعاسة حظي.. يعجزني الخروج مع هذا المرض القاسي؛ الذي لا يرحم.. ومع نصائح الأطباء؛ التي لا ترحم هي الأخرى.. سأكتفي بالبقاء هنا لاستقبال المعزين.. إن ابني

يخصني أكثر من أي مخلوق آخر في العالم **(مستدركاً)** اللهم إلا أمه.. ومع ذلك، أحرم من المشاركة في تشييعه..

الأم: بعد أن قتل، لم يعد يخص أحداً بالذات.. لا أباه.. ولا أمه.. لقد أصبح، ملك المدينة كلها.. وها هي المدينة، كلها تخرج لتشييع ابنها العزيز فقر عيناً..

سامر: **(بعصبية)** أما أنا، فسأخرج مهما كلفني الأمر.. إنه أخي، وأنا أولى الناس به..

الأب: ورجلاك؟

سامر: سأنطلق بعربتي الخاصة.. عشر سنين، وأنا أتجول بها في الشوارع والأسواق.. فعلام التردد هذه المرة؟

الأم: الازدحام الشديد يا سامر.. **(كمن تتذكر)** وربما..

سامر: ماذا؟

الأم: لم يرق للجنود الإسرائيليين هذا التشييع المهيب، وربما ظنوه تحدياً واستفزازاً..

الأب: وماذا يكون إذاً؟ خروج مدينة كاملة لتشييع طفل كان يحلم بقتل إسرائيلي.. ماذا يكون؟

سامر: سأعرف كيف أوجه عربتي وسط الحشود، وسيساعدونني، ولا ريب في ذلك..
(يفتح الباب، ويدخل أربعة رجال، يضعون على صدورهم شارات سوداء، يؤدون التحية برقة بالغة، ويستأذنون بحمل الجثة..)

أحدهم: لقد انتظمت جموع المشيعين كافة، وحانت ساعة التحرك..

آخر: لم نكن نتوقع أن يكون عددهم بهذا القدر.. لقد تقاطروا إثر سماعهم النبأ من كافة القرى والأرياف المحيطة بالمدينة.. بل إن بعضهم قدم من بلاد نائية..

الأب: وهل سيمضي الموكب بهدوء دون أن تعكر مسيرته استفزازات الجنود؟

احدهم: لقد قرروا إرسال سرية كاملة لمرافقة الموكب، بحجة المحافظة على الأمن..

آخر: وقيل: إن قائدها هو نفسه؛ الذي قاد حملة الإرهاب يوم أمس ضد التظاهرة الكبرى (عزرا كوهين)..

سامر: (بانفعال) أمتأكد أنت من ذلك؟

الرجل: هذا ما أشيع في المدينة..

سامر: ولماذا اختاروه هو بالذات؟

الأب: إن الرجل يملك قدراً كبيراً من الرعونة والطيش، وإنني أخاف أن ينقلب التشييع إلى مأساة مروعة. .

رجل آخر: لا تخف. . لقد أعددنا العدة لكل طارئ. .

الرجل الأول: **(مخاطباً الأم)** وستسيرين أنت في مقدمة الموكب. . فأنت، لست أمه وحده. . إنك أمنا جميعاً. . فلسطين نفسها، وهي تتقدم الموكب لتشييع أحد عشاقها الصغار !!

الأم: **(دامعة العينين)** كان يحلم دائماً بأن يقدم لأمه؛ التي أحبها شيئاً غالياً. .

سامر: ما من مخلوق ولد من رحم هذه الأم، إلا وهو يحلم بأن يقدم لها شيئاً عزيزاً **(يحرك يديه بعصبية)**.

(يتقدم الرجال لحمل الجثة. . وقبل مغادرتهم الباب يفسحون مجالاً للأم، ثم يخرجون وراءها. . يخرج سامر في أعقابهم دافعاً عربته بسرعة، ثم ما يلبث أن يتوقف قليلاً إذ يسمع نداء أبيه).

الأب: أنبئني يا سامر عن مراسيم التشييع والدفن. . كن رجلاً وتجلد، فالمصائب؛ التي حلت بأبناء هذه الأرض طيلة نصف قرن، لم تدع فوقها طفلاً. . الكل أصبحوا رجالاً قبل موعدهم بعشرات

السنين.. ليس ثمة طفولة في تاريخ لم يعرف غير الحزن والتشريد والقتل.. ويوم نضمن لأبنائنا فرحاً حقيقياً.. يوم نحميهم من المطاردة الدائمة.. يوم نحصن أحلامهم الصغيرة ضد أشباح الرصاص والدم والبارود.. يوم ذاك، يمكن أن تنبت الطفولة في أرضنا..

سامر: (**وقد اختفى عن الأنظار**) أما الآن، وإلى اليوم الذي ستكف فيه المطاردة والخوف، فإنه مكتوب علينا، أن نشرب الدم ونتنفس البارود.. ذلك قدرنا يا أبي.. وسأكون رجلاً كما تريد، وسأتجلد.. سأكون رجلاً يا أبي..

(يتجه الأب صوب النافذة، ويطل من هناك على الموكب؛ الذي بدأ يتحرك الآن..)

الأب: (**مخاطباً نفسه**) وهم بلا أرض أعمق إرادة، وأكثف وجوداً من الكثيرين ممن يملكون الأرض، ولكنهم يتحركون إلى غدهم ببطء ومذلة.. لا يقدرون على شيء..

(ينظر إلى الساعة ويفتح المذياع.. نستمع إلى أصوات المذيع الإسرائيلي وهو يقرأ نشرة الأخبار..)

المذيع: **هذا هو الموجز، وفي النشرة طائفة أخرى من الأنباء.. هذا وقد قرر مجلس الوزراء الإسرائيلي في**

جلسته المنعقدة مساء يوم أمس ـ واستناداً إلى تقرير المحكمة العليا ـ إلغاء القرار السابق الخاص بالسماح لليهود بالصلاة في المسجد الأقصى. . هذا. .

الأب: (**يقفل المذياع**) لقد تراجعوا إذاً أمام هذا الإصرار العظيم. . ولكننا يجب أن نكون دائماً على حذر، لأن الأفعى ستعرف كيف تبحث عن مكان آخر؛ لكي تصب سمها فيه. .

(ما نلبث أن نسمع صوت انفجار هائل، يعقبه إطلاق زخات من الرصاص، وصرخات، وأصوات متقاطعة لا نكاد نتبينها)

الأب: (**مصفر الوجه يخاطب نفسه**) أيكون هذا هو المكان للدغة الأفعى؟

(يتحرك ببطء راجعاً إلى مكانه من النافذة. . فترة صمت تستمر عدة دقائق، تقطعها الأصوات الحادة المختلطة بين الحين والحين. . بينما يلتصق الأب بالنافذة، محاولاً معرفة ما يجري. . ينفتح الباب بعنف بالغ. . يدخل ضابطان إسرائيليان من ذوي الرتب الصغيرة، وهما يصوبان رشاشيهما إلى الأب. . يفغر الرجل فاه دهشة وهلعاً).

الضابط الأول: لقد قتل القائد، واثنان من مرافقيه، وجرح سبعة آخرون. .

الضابط الثاني: أما هو، فقد تمزق إرباً..

الأب: من؟!

الضابط الأول: ابنك الكسيح..

الأب: (**صارخاً**) سامر؟!

الضابط الثاني: لقد كانت عربته، مليئة بالمتفجرات.. اندفع بها على حين غفلة، مارقاً كالسهم من الموكب صوب كتيبة الحراسة، وسرعان ما دوى الانفجار الرهيب.. (**يصرخ**) سوف نعاقب بقسوة.. سوف تدفع القدس الثمن غالياً (**مخاطباً الضابط الأول**) فتش جيداً هذه الدار؛ بحثاً عن الأسلحة والمتفجرات.. أما أنا، فسأنتظر هنا..

الأب: (**كما لو يحدث نفسه**) لا يمكن.. إنهُ كسيح..

الضابط: لو استطعتم أن تقلعوا عيونكم، وتقطعوا أرجلكم لقتالنا، لفعلتم، مختبئين وراء العرج والعمى..

الأب: (**مستمراً**) كنت ألمح ضوءاً غريباً ينقدح من عينيه بين الحين والحين.. كنت ألمس قلق روحه.. لكنه.. كان.. كسيحاً!!

(**ينفتح الباب فجأة، وتدخل الأم وهي تلهث..**)

الأم: (**تحاول أن ترفع صوتها قدر ما تستطيع، وفرحة الثأر ترتسم على محياها، ودون أن تنتبه لوجود**

الضابط) لقد انتقموا له يا أبا سامر، ولم يمض يوم واحد على جريمتهم.. ألم يعد سامر بعد؟

(تنتبه لوجود الضابط، فتسكت فجأة)..

الضابط: **(من خلال ضحكة صفراء متيبسة)** أتكونين أمه؟

الأم: **(بتحد ودون أن تتحقق من مغزى كلامه)** نعم إنه طفلي..

الضابط: **(من خلال الضحكة نفسها)** ألا تشعرين بأسف عليه؟

الأم: **(بتحد أكبر)** على العكس.. إنني أحمد الله على أن جعل ابني يموت فداءً للمسجد الأقصى[1]..

الضابط: **(منادياً على رفيقه)** ألم تجد شيئاً من المتفجرات بعد؟

الآخر: **(في غرفة أخرى)** كلا..

الأول: **(وهو يشير إلى الأم)** لا داعي للاستمرار في التفتيش.. فقد عثرت أنا عليها!!

- ستار -

---

(١) من كلمات الأم؛ التي استشهد طفلها في قرية قريبة من القدس المحتلة.

أكاديميون

(المنظر، غرفة أساتذة قسم (. . .) في كلية آداب جامعة (. . .) الدكتور عبد الفتاح يذرع الغرفة بعصبية، ويقف بين الحين والحين؛ لكي يخرج من حقيبته الأنيقة رزمة من الأوراق، يقلب صفحاتها . . الدكتور نجيب، يجلس إلى إحدى المناضد، يكتب شيئاً . . بينما يقف الدكتور بطرس، يتمعن في تقويم معلق على الجدار. . .)

د. عبد الفتاح: **(محدثاً نفسه)** نصف ساعة. . نصف ساعة فقط. . وتعرف النتيجة. . قليلاً من الصبر. . يا فتاح. .

د. بطرس: **(ناقراً إصبعه على التقويم)** الإثنين، الأربعاء. . الإثنين، الأربعاء. .

د. نجيب: ثلاثة وعشرون، وسبعة ونصف؟ ثلاثون ونصف، الغ النصف، الباقي ثلاثون. . **(يلتفت إلى دكتور بطرس)** أستحلفك بالله، هل هذا مبلغ يستحق الاحترام؟

د. بطرس: **(غير منتبه إلى سؤال زميله)** الإثنين. . الأر. . بعـ. . اء، إذا استطعت ـ يا بطرس ـ أن تفلت من هذين اليومين، فلك أن تضمن نسبة أعلى. .

د. نجيب: إن الخطأ لا يكمن في عدم تجمع العطل الرسمية جميعاً في يوم واحد، وليكن الإثنين مثلاً، فهذا مستحيل، لكنه يكمن في النظام نفسه، نظام المحاضرات؛ التي يسمح للعطل بأن تلتهمها ببساطة!! تصور يا دكتور بطرس، إنني تمكنت من الالتفاف حول أكبر قدر ممكن من العطل عبر الموسم الدراسي كله. . . لكنني لا أستطيع أن ألتف حول النظام نفسه، حول تحديد قيمة المحاضرة الواحدة، حول كمية المحاضرات الإضافية نفسها. . حول أشياء كثيرة أخرى، إن ثلاثين ديناراً إضافية، لا تعينني على الظهور في المجتمع بالمظهر اللائق. . أترى هذه الحقيبة؟

د. بطرس: **(لا يزال يردد الإثنين. . الأربعاء، وكأنه شارد في عملية حسابية معقدة، ينتبه فجأة)** أية حقيبة؟

د. نجيب: هذه؛ التي تراها أمامك. . فيبر أمريكي أول باب ذهبت إلى المصنع في كاليفورنيا. . إلى المصنع نفسه. . وأعطيتهم أوصافها. . أوصاف حقيبة كنت أحلم بحملها منذ كنت طالباً في كلية الآداب، وأنا أرى بعض الأساتذة يحملون حقائبهم الفارغة، ويميلون بأجسامهم الرشيقة حيث مالت الحقائب. . كاد المنظر المهيب أن يسلب لبي. . ومن يومها وأنا أنتظر إكمال دراستي، واجتياز ممرات الكلية

بالحقيبة إياها، والدخول على الطلاب.. تماماً كما كان أساتذتنا يدخلون علينا.. (**يضحك**).

د. بطرس: (**جاداً**) إنك تدين نفسك يا دكتور نجيب.. كأنك تريد أن تقول: إن سعيك لإكمال دراستك، لم يكن هدفه وجه العلم الخالص، أو الحصول على الشهادة على الأقل، إنما..

د نجيب: (**مقاطعاً**) هذا لا يتعارض مع ذاك !!

د. بطرس: لماذا لا نكون صادقين مع أنفسنا، ونعترف.. أنا مثلاً، لا تهمني المظاهر، ولكن ما وراءها..

د. نجيب: المال.. مثلاً؟

د. بطرس: لماذا لا نسميه (**الحقوق المشروعة**)؟، ما الذي دفعنا إلى أن نجهد السنين الطوال؟ أمن أجل أن نعود؛ لكي نحظى براتب شهري مساو لذلك؛ الذي يحظى به حامل البكالوريوس؟ لا بل هناك ما هو أسوأ من هذا.. إن الذين مارسوا التعليم الابتدائي - بعد اجتيازهم مرحلة الخامس الإعدادي مباشرة - يملكون الآن، أكثر منا بكثير.. أتدري لماذا؟

د. نجيب: هذه مسألة معروفة؛ لأنهم عينوا قبلنا بعشر سنوات، أو أكثر...

د. بطرس: بالضبط. . ومع ذلك، فإن المنفذ الوحيد ـ المحاضرات الإضافية ـ يضيق يوماً بعد يوم. . لعنة الله على العطل الرسمية. . يوم الجيش، يوم المعلم، يوم الأمي، يوم العامل، يوم الطالب، يوم المرأة، يوم الطفل، يوم الرضيع، يوم الأجنة، يوم القيامة. .

د. نجيب: يوم القيامة أيضاً؟

د. بطرس: بالنسبة إلينا على الأقل. . . ألا تكفي عطلتنا الصيفية الطويلة؛ لكي نحاصر بالعطل خلال الموسم الدراسي من أقصاه إلى أقصاه. . يبدو أن الزمن لا قيمة له عندنا. .

د. نجيب: قال لي أحدهم: إنه صدر قرار باستعارة عشرة أيام من أيلول؛ لإضافتها إلى آب؛ لأنه سينفجر من كثرة ما حمل من العطل. . وستسمع يوماً عبارة الثامن والثلاثين من آب !!

د. بطرس: آب لا بأس. . المهم، ألا يمسوا تشرين، أو كانون، أو أيار!! **(يعود إلى التقويم)** الإثنين. . الأربعاء. الإثنين. . . .

د. نجيب: **(يفتح الحقيبة، ويخرج قطعة سندويش من إحدى جيوبها، ويمد يده إلى الجيب الآخر، فيخرج قطعة كيك، ويبدأ بالتهام غدائه)** تفضلوا شاركوني. .

د. بطرس: شكراً. . فقد أكلت قبل قليل. . .

د. عبد الفتاح: **(يرفع رأسه عن الأوراق، ويبتسم ابتسامة سريعة وهو يقول)**: إنك يا دكتور نجيب، لم تشتر من كاليفورنيا حقيبة. . أؤكد لك. .

د. نجيب: **(وهو يزود لقمة كبيرة)** اشتريت ماذا إذاً؟

د. عبد الفتاح: مطعماً متنّقلاً!! **(ضحك)**

د. نجيب: وأنتم. . تحملون في حقائبكم مكتبات منتقلة. . أليس كذلك؟

د. عبد الفتاح: هذه على ما أعتقد مهمة الحقائب. .

د. نجيب: ولكن، يبدو أن كتبها مخصصة للإعارة الخارجية، وليست للاستعمال الخاص !!

د. عبد الفتاح: كيف؟

د. نجيب: حاولت أن أتصفح ـ ذات يوم ـ ما تضمّه حقيبتك الموقرة. . فلم أستطع. .

د. عبد الفتاح: لماذا؟

د. نجيب: لأن الكتب، كانت لا تزال مقفلة الأوراق، لم تمسها يد، ولم أشأ أن أسبقك في الاطلاع عليها. . فهذه أسرار يجب أن تصان.

د. عبد الفتاح: يبدو أنها مشتريات حديثة؟

د. نجيب: لا.. أبداً، لأنك وضعت عليها تاريخ الشراء (**نيسان ١٩٦٧**)، وأنا حاولت استراق النظر إليها في تشرين أول عام ١٩٧٣ !

د. بطرس: من تطحنه المظالم المالية، لا يستطيع أن يقرأ.. أن يفتح كتاباً..

د. نجيب: وكيف إذاً ستحظى بترقيتك العلمية؟

د. بطرس: (**ببساطة بالغة**) كتابة بحث علمي، أسهل بكثير من قراءة كتاب.

د. نجيب: لا أعتقد.

د. بطرس: إن قراءة كتاب تكلف ذهنك جهداً، أما كتابة بحث (**علمي**)، فلا تتطلب منك أكثر من نقل عدد من النصوص وتنسيقها، وفق أصول البحث الحديثة، وتثبيت هوامشها بدقة...

د. نجيب: والاجتهاد؟ ووجهات النظر الشخصية؟ والتحليل؟ وصياغة طريقة العرض؟

د. عبد الفتاح: هذه جميعاً مسائل (**غير علمية**)، عملية إسقاط لا منهجية للذات على الموضوع، البحث العلمي: **هو أن يتجرد الباحث عن أهوائه، أن ينسلخ عن ذاته، وألا يتعامل إلا مع النصوص..**

د. نجيب: وأن يكتب بحثه العلمي في خمس صفحات أو ست. .

د. عبد الفتاح: ليس المهم حجم البحث، ألم تقرأ تعليمات المجلة الأخيرة؟ إنها تلزم الأساتذة بألا تتجاوز أبحاثهم؛ التي يتقدمون بها للترقية، الست صفحات من الحجم الكبير، بل إنني أعتقد على العكس، بأن البحث، كلما كان أكثر تركيزاً، كان أكثر علمية!!

د. نجيب: لهذا ـ ورغبة منك في أن تكون أكثر عملية ـ لا تطلع علينا في العام الواحد بأكثر من بحث، لا يتجاوز الخمس صفحات. . ولولا ضرورات الترقية العلمية، لما كتبت هذه الصفحات.

د. عبد الفتاح: **(بنوع من الغضب المكبوت)** هذا خير من أن نحمل حقائب مزيفة. .

د. نجيب: أحمل في حقيبتي طعاماً يؤكل في يومه، خير من أن أحمل كتاباً لا يقرأ إلا بعد عشر سنوات.

د. عبد الفتاح: **(وقد هزم)** دكتور نجيب. . هذا مزاح ثقيل لا أسمح لك به. . ولولا أن القلق يحاصرني في انتظار النتيجة، لعرفت كيف أسكتك. . **(ينظر إلى ساعته)** لم يبق إلا دقائق. . سامحك الله يا دكتور نجيب!

د. نجيب: **(وهو يزدرد آخر لقمة)** لم أرد إلا المزاح البريء.. وأنا مستعد لأن أسحب كلامي..

د. بطرس: **(محاولاً أن يغير الموضوع)** إن دكتور فتاح قدم ـ منذ أكثر من شهر ـ بحثين علميين**(أصيلين)** طالباً ترقيته العلمية المستحقة.. ولم يأته الجواب إلى الآن، رغم أنه مضى أكثر من ثلاثة أشهر على استحقاقه هذه الترقية.. يبدو أن هناك في الجامعة من يقف في طريقه !!

د. عبد الفتاح: ليس لي عداء مع أي موظف في الجامعة صغيراً كان أم كبيراً..

د. نجيب: **(يعود إلى سخريته المبطنة)** ليس العداء الشخصي، بل لعله العداء العلمي.. أعني، ربما يكون الحسد؟

د. عبد الفتاح: **(غير منتبه إلى كلام زميله)** إن أعضاء لجنة الترقية كلهم من المتخصصين في غير الفروع الإنسانية، فكيف لهم أن يقيموا أبحاثنا بشكل علمي؟ !

د. بطرس: على أية حال، إن اللجنة مجتمعة الآن، وستقرر ـ فيما تقرر ـ مصير طلبك..

د. عبد الفتاح: **(مشيراً إلى البحثين)** (المنطق الاقتصادي للفتح الإسلامي) (القانون الروماني كأساس للتشريع الإسلامي).. ما أدراهم بهما؟ **(ينظر إلى ساعته)** إذا

بر الدكتور عباس بوعده، فإنه سيعطيني النتيجة بالتلفون، بعد دقائق. . آه. . لقد أرهقني البحث والانتظار، وقد آن لي أن أرتاح. . إنني تعبان. . آه. .

د. نجيب: ليكن الله في عونك. . إن كتابة بحثين علميين (**أصيلين**) من عشر صفحات، أو عشرين، أكثر عناء من تأليف كتابين، أو ثلاثة لا تلتزم منهج البحث العلمي، سيما إذا كان البحثان معدين للترقية العلمية!!

د. بطرس: (**بما يقرب من السذاجة**) وهل نجهد في ميدان البحث، إلا لغرض الترقية العلمية؟ !

د. عبد الفتاح: (**مقلباً صفحات البحثين**) لقد أكلتما أعصابي. . طويلة. ساعة الفرج قريبة، وسوف آخذ بعدها عطلة فكرية طويلة. . طويلة. . دكتور نجيب. . إنني تعبان. .

د. نجيب: ولكن، ماذا ستقدم للترقية التالية؟ إن عليك أن تعد العدة فور ترقيتك الأولى للزحف الجاد صوب الثانية، وهذا يقتضي منك أن تجهد من جديد، وتشمر عن ساعد (**العلم**)؛ لكتابة بحثين آخرين. .

د. عبد الفتاح: هنالك، بعد خمس سنوات أخرى، وعندما تنقضي هذه السنين الطويلة، يطاح بألف عمامة، كما يقول المثل. .

د. نجيب: إلا العلم، فإنه لا يتأَثر بتقلبات الزمان..

د. عبد الفتاح: ولم لا؟ ألا ترى أن القوانين تذيل باستمرار؟ أشد القوانين صرامة تذيل، أكثر التشريعات خطورة تذيل.. أتدري معنى أن يوضع للقانون ذيل؟

د. نجيب: نعم.. التمهيد لركوب القانون !!

د. عبد الفتاح: بالضبط.. وسرعان ما يضيع الجوهر، ولا تتبقى إلا الذيول..

د. نجيب: لكثرة ما يركب المسكين !!

د. بطرس: ولكن، ما علاقة التذييل القانوني بالترقية العلمية؟

د. عبد الفتاح: دكتور بطرس.. ما كنت أظنها تخفى عليك..

د. بطرس: ؟

د. عبد الفتاح: بعد أربع سنوات أو خمس تكون الذيول، والتحفظات، والترخيصات؛ التي ألحقت بقانون الترقية، القائم على ضرورة تقديم مالا يقل عن بحثين، قد طغت على القانون نفسه، نظراً لكثرة الطلبات والالتماسات.. وحينذاك، سأنفذ إلى هدفي بسهولة.. دكتور عبد العزيز المرجاني.. لعنة الله عليك !!

د. نجيب: لماذا؟

د. عبد الفتاح: لأنه، هو الذي سن هذا القانون، وكانت المسألة قبل ذلك مجرد عد سنوات!!

د. بطرس: لقد حاول أحد أساتذة الاقتصاد، أن يترقى ببحثين استلهما من أطروحته، وعندما اعترضت اللجنة عليه، تمكن بتأثيراته؛ التي لا تقاوم، من تغيير أعضاء اللجنة، فوافقت اللجنة الجديدة بالإجماع!!

د. نجيب: لا ريب أنهم متضلعون في مادة الاقتصاد؟

د. بطرس: على العكس، إنهم جميعاً من أساتذة الطب والجراحة...

(جرس التليفون يدق، يقفز إليه دكتور عبد الفتاح بخفة، ويرفع السماعة)

د. عبد الفتاح: ألو.. ألو.........؟

د. عبد الفتاح: نعم.. أنا عبد الفتاح.. من؟ بطرس؟**(مع نفسه)** لعنة الله عليك وعلى بطرس، كنت أتصورك دكتور عباس،**(يرفع صوته)** هذا بطرس، كلمه يا دكتور بيترز !!

(ينهمك دكتور بطرس في المكالمة، ويتجه نجيب إلى أوراقه، بينما يدخل أحد الطلاب)

الطالب: صباح الخير دكتور عبد الفتاح.

د. عبد الفتاح: **(بضجر)** صباح الظلمات.. **ماذا تريد؟**

الطالب: قضية التقارير . .

د. عبد الفتاح: أية تقارير . .

الطالب: تلك؛ التي كلفتنا بكتابتها .

د. عبد الفتاح: نعم . . ماذا بها؟

الطالب: نريد أن تعفينا منها . .

د. عبد الفتاح: لماذا؟

الطالب: تعفينا منها، لأن تقارير بقية الأساتذة جاوزت الحد . .

د. عبد الفتاح: وما شأني أنا ببقية الأساتذة . . التقارير يجب أن تكتب .

الطالب: إن الطلبة متجمهرون بالباب، وإنهم قد قرروا إعلان الإضراب عن الحضور لمحاضرتك إن لم تستجب لمطالبهم بإلغاء التقارير . .

د. عبد الفتاح: **(وقد أدرك خطورة الموقف، فأراد مداراته بالمزاح المبطن بالجد)** قولوا لجامعتكم ترفع عنا كتابة الأبحاث لأغراض الترقية، نرفع عنكم كتابة التقارير لغرض النجاح !! واحد زائد واحد يساوي اثنين . . أليس كذلك يا دكتور نجيب؟

د. نجيب: كلا . . يساوي ثلاثة !!

د. عبد الفتاح: لماذا؟

د. نجيب: لأنه من المستحيل أن نجمع برتقالتين إلى ثلاث بيضات، وتقول تساوي خمسة (**يخرج**).
(يدق جرس التلفون.. يضطرب دكتور عبد الفتاح، ويشير إلى الطالب بأن يخرج وينتظر قليلاً.. يرفع السماعة)

د. عبد الفتاح: ألو.. ألو.. نعم.. أهلاً. دكتور عباس؟ أبشر يا أخي، لقد نفد صبري.. ماذا؟ (**يمتقع وجهه قليلاً**) الهوامش؟ ماذا بها؟ أقل مما يجب؟ عجيب !! إن ثلاث صفحات من البحث الأول، وصفحتين ونصف من البحث الثاني، تزيد فيها الهوامش على المتون.. ماذا يريدون أكثر من هذا ليكون بحثاً علمياً؟ خمس صفحات ونصف من مجموع عشر صفحات.. ويعترضون؟ ماذا؟ يريدون مزيداً من الهوامش؟ كان بمقدوري أن أكتب لهم أبحاثاً كلها هوامش.. ولكن، أين يذهب البحث نفسه؟ ماذا؟ واحد على خمسة؟ ماذا تعني؟ سطر في المتن يجب أن يقابله خمسة هوامش؟ هذه تعليمات؟ هكذا يقول أعضاء اللجنة؟ لماذا لم تبلغونا بذلك قبل هذا الوقت؟ أبعد أن شاب رأسي وابيضت مفارقي من العمل، أجابه بهذه التعليمات؟ ومن هم

أعضاء اللجنة يا دكتور عباس؟ متخصصون؟ هذا معروف، وعلماء؟ هذا معروف أيضاً، ومفروض في أية لجنة جامعية.. ولكن، ما هو تخصصهم؟ الرياضيات والكيمياء؟ وما هي علاقة الرياضيات والكيمياء بالتاريخ؟ يقولون: إن العلم هو العلم، وإنهم ينفذون تعليمات صارمة مكتوبة أمامهم؟ **(يزداد يأساً)** وما العمل يا دكتور عباس؟ ستحاول معهم؟ بارك الله فيك.. وسوف لا أنسى فضلك.. إنني بانتظار مكالمة أخرى منك.. تذكر إنني على أحر من الجمر.. مع السلامة..

(يضع السماعة ويرتمي على المقعد بإعياء.. يدخل الطالب)

الطالب: تسمح دكتور عبد الفتاح؟ إن الطلاب يلحون على ضرورة إعطائهم النتيجة خلال دقائق، فإن عددهم يزداد، وقد بدؤوا بوضع الملصقات الجدارية؛ التي تندد بك..

د. عبد الفتاح: أية نتيجة؟

الطالب: قضية التقارير..

د. عبد الفتاح: اذهب، فقل لهم: إن أستاذكم ينتظر نتيجته الخاصة، وعلى ضوئها سيقرر.

الطالب: الطلبة لا تهمهم مسائلك الشخصية، إنهم يريدون أن ترفع عنهم التقارير. أتسمع.. إنهم - الآن - يهتفون ضدك..
(تسمع نداءات من خارج الغرفة: يسقط دكتور عبد الفتاح.. لتذهب إلى الأبد دكتاتورية التعليم.. ماذا تريدون؟ نريد رفع التقارير.. الخزي والعار لدكتور فتاح.. لا.. للدرجات القليلة.. نعم.. للسخاء..)

د. عبد الفتاح: إنها ليست قضية شخصية.. إنها علمية صرفة..

الطالب: وما علاقة الطلاب بذلك؟

د. عبد الفتاح: ألا تهمهم مسألة العلم؟ ألا يعنيهم المستقبل العلمي لأستاذهم؟

الطالب: **(بنفاد صبر)** الذي يهمهم فقط، هو أن ترفع عنهم التقارير..
(جرس التلفون يدق، يرفع الدكتور عبد الفتاح السماعة)

د. عبد الفتاح: نعم.. دكتور عباس؟ انتهت؟ انتهت كيف؟ رقيت؟ **(يتنفس بعمق)** الحمد لله.. الحمد لله، سوف لا أنسى دورك يا دكتور عباس.. سوف لا أنسى دورك **(يضع السماعة)**.. **(يلتفت إلى الطالب)** قل

لرفاقك الآن: إن أستاذكم مستعد ليس لرفع التقارير، وإنما لرفع درجاتكم جميعاً إلى التسعينات.. وإلى رفع أي شيء يريدونه !!

الطالب: (**فرحاً**) ألف شكر يا دكتور عبد الفتاح.. ألف شكر(**يفتح الباب ينادي الطلبة**) رجاءً.. انتبهوا إلي.. إن الدكتور عبد الفتاح وافق على مطالبكم وزيادة، وإنه مستعد الآن، لرفع أي شيء تطالبونه برفعه !!

الطلاب: بل نحن نرفعه على رؤوسنا.. (**يندفعون إلى الغرفة وهم ينادون**): يعيش الدكتور عبد الفتاح.. لتحيا إلى الأبد ديمقراطية التعليم.. لا تقارير بعد الآن..

د. عبد الفتاح: (**ضاحكاً**) ولا أبحاث بعد اليوم !!!

- ستار -

صرخة عند المسجد الأقصى

(المنظر: مسجد الصخرة وقد تساقطت بعض جوانبه.. الدخان لا يزال يتصاعد.. السور الخارجي والفسحة الأمامية تبدوان بوضوح في الجهة القريبة من المسرح، أما صحن المسجد، فلا يبدو منه سوى جزء صغير في الجهة البعيدة من المسرح... حارسان إسرائيليان، يذرعان السور جيئة وذهاباً.. يتحدثان وعيونهما تراقب بحذر وتوجس جوانب المكان..)

الحارس الأول: إذا استطعنا أن نصمد لعاصفة السخط؛ التي سيثيرها الحريق في أنحاء العالم ـ كما صمدنا من قبل ـ فإن مستقبلاً عظيماً ينتظرنا.

الحارس الثاني: هيكل سليمان يعود؟! غفرانك يا يهوذا.. يا رب إسرائيل..

الأول: يقام من جديد.. بعد انتظار ألفين وخمسمئة من السنين!! أمل لم يكن أجدادنا ـ ولا حتى آباؤنا ـ يتوقعون أن يشهده التاريخ.. وها نحن، نقف على مشارف العصر؛ الذي انتظرناه طويلاً.. البناء، وهو يقام!! إن سليمان، سيباركنا في السماء..

الثاني: ولكنه لن يغفر لنا الشتائم القاسية، التي ألحقناها به، وبآبائه عبر العصور، والتي تعج بها كتبنا المقدسة!!

الأول: سوف يغفر، سوف يغفر. إنه بمجرد أن يرى الهيكل يقام على قواعد من الذهب الخالص، فسوف يسكر منتشياً، وسينسى كل شيء. أي نبي في الأرض يرى هذا الذهب ثم يتبقى في نفسه.. من غضب، لا لشيء إلا لأن سباباً قاسياً لحقه في يوم من الأيام؟ أي أعمى لا ينساب بريق الذهب إلى ضميره ووجدانه، فيغسل ما علق بهما من أوهام وخرافات؟

الثاني: (**مشيراً إلى قبة المسجد**) ولكن هذه.. هذه !!

الأول: (**ضاحكاً**) بالأمس أحرقنا جانباً كبيراً من المسجد، وأحلناه إلى ركام ودخان، وغداً، عندما تسكن عاصفة الغضب والاحتجاج، سوف نخطو الخطوة التالية، فنهدم هذه القبة من الجذور !!

الثاني: لن أصدق هذا.. لن أصدق هذا..

الأول: بلى، سوف تراه بأم عينيك.. ستفتحهما يوماً لترى المسجد الأقصى، وقد غدا أرضاً جرداء.. مساحة رائعة تمتد إلى جهاتها الأربع، بلا عائق، وآنذاك، ستبدأ معاول صهيون بحفر القواعد؛ التي سيقوم عليها الهيكل الكبير..

الثاني: يا إلٰه إسرائيل.. ولكن..

الأول: ولكن ماذا؟

الثاني: لو يتمكن شعبنا من الصمود إزاء العاصفة، لو يقدر قادتنا على تفتيت وحدة الحس الإسلامي في غمار مأساته؛ التي نكتبها بأعز ما يملك، وأعادت إلى وجدان كل مسلم، ما كان يشعر به يوماً من تواصل عميق مع سائر المسلمين في شتى أقطار الأرض..

الأول: لا تخف هذا التواصل.. إن تجارب التاريخ المعاصر ـ على ثقلها وعنائها ـ لم تستطع أن تعيده إلى ضمائر المسلمين وقلوبهم.. فهل بإمكان حريق بسيط كهذا أن يعيده؟ إن القطيعة؛ التي تتآكل مسلمي اليوم.. الجدران؛ التي تعزلهم واحداً عن الآخر.. والسدود؛ التي أقامها أصدقاؤنا بين حكامهم وشعوبهم جميعاً، سوف تتيح لنا أن نمضي إلى هدفنا، دونما رهبة، أو تردد، أو خوف..

الثاني: ولكني، ألمح اليوم، نذير عاصفة مخيفة، توحي إلي أن الوحدة القديمة بين المسلمين، وحدة الضمائر والقلوب، ستعود.. يجمعها الحزن؛ الذي أثاره الحريق، ويشدها الغضب الهائل؛ الذي أحال كل قلب إلى قطعة من جمر، تقذف ناراً،

تبدو وكأنها ستستحيل يوماً إلى جحيم، لن تصمد إسرائيل على الوقوف إزاءها.

الأول: يبدو أنك متشائم أكثر مما يجب. وإنني أذكر جيداً، يوم انتصرنا على العرب في حرب الأيام الستة، كيف ملك الخوف عليك أقطار نفسك، ورحت تؤكد لي أنهم سينتقمون.. وأن ثأراً مريعاً ستشهده إسرائيل، ثأراً لا يبقي على شيء في صهيون، ولا يذر..

الثاني: ولكن خوفي اليوم، ينبثق من معين أكثر رعباً.. وإني لألمح ـ بأم عيني ـ ما سيجره علينا تدمير المسجد الأقصى.. إن القضية اليوم، تتعلق بمصير الوجود الإسلامي كله.. سبعمئة مليون مسلم، لا يمكن أن يقفوا ساكتين تجاه رمز وحدتهم الأخير، وهو يتداعى، تأكله النار، ويتصاعد الدخان من أركانه وبقاياه.. لا يمكن لهم أن يدعوا الحزن يتآكلهم من الداخل وهم يقفون واجمين، لا يحركون ساكناً، ولا يطلقون صرخة..

الأول: إن قادتنا أذكى من أن يسعوا بإرادتهم إلى مجابهة خطيرة كهذه، إنهم ـ من جهة ـ سيدمرون على المسلمين مسجدهم في المدى الطويل.. موجات متعاقبة، يباعد بينها الزمن، ويلف النسيان آثارها

وأحزانها. وهم - من جهة أخرى - يعرفون كيف يفتتون هذا الحس الواحد، هذا الحزن المشترك، وهذا الغضب المدوي.. إن قادتنا، سيهيئون الأرض لمولد أحداث مضادة جديدة، تمتص هذا الحزن وذلك الغضب، أحداثاً تبدو في ظاهرها عملاً خطيراً ضد إسرائيل، ولكنها - في حقيقتها - ليست سوى استراتيجية صميمة.. وإني لأرى بوضوح، بوادر هذا الامتصاص، وذلك التفتيت!!

الثاني: (**يركع مصلياً**) يا يهوذا.. يا رب إسرائيل.. أعط الفرصة لشعبك المختار؛ كي يحقق ما حلم به منذ عشرات القرون.. أن يقام الهيكل، وتصعد من أركانه الأربع صلوات يهود، تمجد الإله؛ الذي ساق شعبه إلى مصيره العظيم..

(يمرق فدائيان، فينقض أحدهما على الحارس الأول ويطعنه بسكين، بينما يقوم الفدائي الآخر بخنق الحارس الثاني بهدوء.. يتنحى الفدائيان جانباً بترقب وحذر، بينما يجتاز المكان ثلاثة فدائيين آخرين وهم يحملون مدفعاً كبيراً؛ لإطلاق الصواريخ. يختفي الثلاثة، ويبقى الفدائيان الأولان).

الفدائي الأول: إذا استطاعوا أن يصلوا بالمدفع إلى المكان المحدد تماماً، فسوف تستيقظ إسرائيل - بعد أقل من ساعة - على سماء القدس وهي تمطر ناراً.

الفدائي الثاني: بشرط، أن تتمكن الوحدات الخمس الأخرى من نصب مدافعها في الأماكن المرسومة..

الأول: لن يخالجني الشك في أن الله سبحانه، سيحجب عن عيون الإسرائيليين حركة إخواننا في قلب القدس.. ولن أشك في أنه ـ سبحانه ـ سيتيح لجنده ـ عما قليل ـ أن يصبوا حقدهم المقدس في قلب المدينة؛ التي نفذت فيها المؤامرة الدنيئة..

الثاني: لكم أتمنى أن أغدو قذيفة، يصبها مدفع كبير على رأس من الرؤوس؛ التي أسهمت في هذه المأساة **(ينظر بأسى وغضب إلى الدخان المتصاعد)**

الأول: إن الغضب يثور في أعماقي، ولن يدعني أقر إلى قرار، أو أعرف طعم النوم، قبل أن ترغم حركتنا بني صهيون على الاعتقاد بأن مؤامرة كهذه، وحدثاً خطيراً كهذا، لا يمكن أن يمر بسلام. إننا من جهتنا، نؤدي دورنا في مدى قدرتنا.. ولو أتيح لكل مسلم أن يتحرك ليؤدي دوره في مدى قدرته.. لو أعطيت الحرية لكل شعب مسلم، أن يعبر عن غضبه وحزنه بحركة ما، بتنفيذ فكرة، بتحويل هذا الغضب وهذا الحزن إلى أفعال وخطوات.. لو تم هذا وذاك.. لكان حريق المسجد الأقصى كفاء لما فجر في قلوب المسلمين من غضب، وما أحرق به أفئدتهم من سخط، ورغبة عاتية في الانتقام..

الثاني: ترى، هل تتحقق أمنيتك هذه، فيجد المسلمون أنفسهم وهم يتحركون بحرية تامة صوب حماية مسجدهم المقدس؛ الذي نافح آباؤهم عنه قروناً طوالاً؟ وها هم اليوم، يستيقظون على رؤى النار والدخان، وهو يتصاعد من أطرافه. . وسيستيقظون غداً على أصوات المعاول، والفؤوس، وهي تزيح الركام؛ لتبدأ عملها في إعلاء هيكل سليمان. ما الذي أتاح للمسلمين ـ في الماضي ـ أن يخلصوا مسجدهم من أخطار كهذه؟

الأول: ليست سوى حرية الحركة. . حرية تحويل الكلمات إلى خطوات، والأفكار إلى أعمال، والمشاعر الحبيسة إلى نار حقيقية، تتفجر في وجوه الذين سعوا إلى دمار هذا المسجد. . الحرية؛ التي أعطت لكل مسلم ـ في الماضي ـ فرصته الكاملة في أن يرفع سلاحه ـ في الوقت المناسب ـ وأن يتقدم دونما عائق؛ لحماية مقدساته، والانضواء تحت القيادة؛ التي يراها جديرة بأداء هذا الدور الخطير. .

الثاني: **أما نحن، فإننا نبرئ ذمتنا أمام الله. . وملعونون هم، أولئك الذين خانوا العهد، وأقاموا الأسوار أمام حرية المسلمين. . ملعونون هم، أولئك الذين خنقوا الصرخة في نفوسهم، والكلمات في**

حناجرهم، وأحالوا المشاعر الحبيسة إلى دمار يسحقهم من الداخل، ملعونون هم، أولئك الذين سدوا الطريق أمام الفكرة أن تغدو عملاً، ودمعة الأسى الحزينة، أن تصبح إنذاراً ورعباً ينصب على رؤوس قتلة الأنبياء..

الأول: ترى، ما الذي سيقوله المسلمون غداً لصلاح الدين وهو يسألهم، دامع العينين عن ضياع المسجد؛ الذي قاتل دونه طوال سني مسؤوليته؟

الثاني: أما نحن، فإن لدينا ما نقوله من خلال لغتنا الخاصة.. ولكن، ماذا لو رأى النار تتصاعد من قلب المسجد، والدخان ينبعث من بين الركام؟.. ماذا لو رأى النار والدخان **(يتلاشى صوته.. ويختفي الفدائيان.. صوت مجموعة من الخيول قادمة من بعيد.. مقدمة المسرح خالية لحظات.. وسرعان ما يظهر (المنادي) بملابس المسلمين في عصر الحروب الصليبية.. يقف عند أسفل الجدار، ويلمح الدخان المتصاعد بأسى عميق.. ثم ما يلبث أن يشير إلى الجهة؛ التي تنبعث منها أصوات الخيول وينادي)**.

المنادي: السلطان الناصر صلاح الدين بن يوسف قادم عما قليل؛ لأداء الصلاة، يصحبه أبناؤه وحاشيته

وقادته.. السلطان يلمح الدخان من بعيد، فتغمر الدهشة والقلق ملامح وجهه.. ها هو يقترب من مصدر الدخان.. يترجل على الأرض، ويتبعه أبناؤه وحاشيته وقادته.. يعاين بقايا النار؛ التي تنخر في أسس المسجد.. السلطان ينتفض غضباً ويصرخ..

صلاح الدين: **(دون أن يرى هو أو أحد من أتباعه على المسرح إلا من خلال ضباب كثيف)** من الذي أشعل هذه النار؟ أي ملعون أوقد هذا الحريق؟ المسجد الأقصى يحترق؟ أين ذهبت إذاً تلك الجهود المضنية؛ التي بذلناها طوال سنين صعبة من أجل هذه البقعة المباركة؟ أيمكن لأنهار الدماء؛ التي فجرها المجاهدون بقلوبهم وأشلائهم أن تضيع؟ **(يرتفع صراخه)** إنني أسألكم من الذي أشعل هذه النار؟! **(أصوات استنكار وهمهمات تنبعث من الجموع؛ التي تحيط به.. ومن سائر المسلمين الذين قدموا لأداء الصلاة..)**

المنادي: أي غضب مريع هذا؛ الذي يسيطر على ملامح السلطان هذه اللحظة؟ أي أسى عميق هذا؛ الذي يتفطر به قلبه؟

أحد أبناء صلاح الدين: **(يأتي صوته من بعيد)** هون عليك يا أبتاه، إن ما أكلته النار، تستطيع أنت أن تعيده كما كان..

الابن الآخر: تستطيع يا أبتاه أن تبعث رسلك إلى أقطار الأرض، تستقدم البنائين، وفي مدى أيام فحسب، سيعود المسجد كما كان.. شامخاً، منيعاً، يتحدى الزمن..

صلاح الدين: ولكنّي، أحس بأنه ليس بإمكاني أن أستعيد البناء، إن ثمة جداراً شاهقاً يقف بيني وبين ما أريد.. لن أستطيع أن أكتب إلى البنائين في مشارق الأرض ومغاربها.. ستجد الخيول المنطلقة إليهم، أقدامها تغوص في الوحل، وقوائمها تلتصق بالطين.. إنني واثق من أنها ستتهاوى ـ بما عليها من رسل ـ في أعماق الوحل والطين..

الابن الأول: ولكن.. أتذكر يا أبتاه، كيف استطعت أن تعيد تحصين المدينة بأجمعها، وتقيم سورها المنيع في أيام معدودات قبل أن تداهمها جيوش الأعداء؟

أحد القادة: إن أمراء المسلمين جميعاً جند لك.. قل ما تشاء، فإنهم سامعون مطيعون..

صلاح الدين: (**بأسى**) كان ذلك زمن ـ يا أبنائي وأصحابي ـ لم يكن فيه هذا الجدار؛ الذي يفصل بيني وبين إرادتي وأمرائي..

الابن الثاني: زمن غير هذا؟ لم يمض على ذلك أكثر من شهور يا أبتاه !!

صلاح الدين: شهور؟ أبداً. . أبداً. . إن الذي يفصل بيننا وبين ذلك الزمن، قرون طويلة. . طويلة. . ملأها التاريخ أحداثاً مرة كالعلقم. . وسد طرق المسلمين عبرها بالشوك، وأدمى قلوبهم بالجراح. . شهور؟ أبداً أبداً. .

الوزير: وهل ثمة تاريخ أكثر مرارة وشوكاً وجراحاً من تاريخك أنت يا سيدي، وتاريخ شعبك؟

صلاح الدين: (**يصرخ فجأة**) كلا. . لقد كنا نملك نحن من الإيمان والإرادة. . . ونستشعر من الحرية ما أتاح لنا أن نستمرىء العلقم في سبيل الأهداف الحلوة، وندوس على الشوك صوب المستقبل السعيد، ونتقبل الجراح والنزيف من أجل أن لا ترى هذه البقعة المباركة دماً وجراحاً ونزيفاً. . إنكم ترون الآن. . انظروا. . أليست هذه النار؛ التي تلفظها جدران المسجد نزيفاً يمتص الدماء من قلبه الكبير؟ أليس هذا الدخان. . هذا السخام المتصاعد إلى السموات. . حزناً عميقاً يعبر به المسجد الأقصى عن ألمه وجراحاته، ويشكو إلى الله عزلته ووحدته وعذابه؟ أي زمن هذا؟ كلا. . لقد كنا آنذاك نملك الإيمان، والإرادة، والحرية. .

الابن الأول: أرى أنك تتكلم بلهجة الماضي يا أبتاه؟ !

صلاح الدين: (**بحزن**) وهل أنا الآن.. هذه اللحظات.. إلا ماض سحيق عفى عليه الزمن، وغمر وجوده الحاضر ركام الأحداث، وذكريات السنين؟ إنني ماض يا ولدي.. إنني ماض(**يتلاشى صوته**).

المنادي: (**تخنقه العبرة**) السلطان يبكي.. عيناه تذرفان دمعاً سخياً.. دموعه تنساب على لحيته.. إن حريق المسجد الأقصى فتت فؤاده المرهق الحزين.. السلطان يبكي..

(أصوات الحاشية، والقادة، والمصلين دعنا أيها السلطان نطفئ الحريق بأيدينا وأجسادنا.. مرنا.. نفتدي المسجد المبارك بقلوبنا وأرواحنا..)

صلاح الدين: لن تستطيعوا.. إن زمناً طويلاً يفصلكم عن القدرة على افتداء هذا المكان.. إن ثمانية قرون تعزلكم عن الواقع المر؛ الذي تتنزل فؤوسه على بنيان المسجد، فتحيله إلى بقايا وأنقاض.. إنكم تحيون في ماضيكم بعيدين بعيدين.. عن أن تفتدوا مسرى نبيكم بالقلوب والأرواح..

المنادي: الأبناء والقادة والرفقاء، يتحركون وكأنهم يستيقظون من حلم عميق.. إن كلمات السلطان، فتحت وعيهم على حقيقة ما هم فيه.. ولكن، انظروا، إن السلطان يعود فيركب فرسه، بينما، تغمر الدهشة والحيرة جميع من معه.. يلتفت السلطان، ويقول لهم :

صلاح الدين: **(وقد ابتعد صوته أكثر)** إنني لست غاضباً لأن المسجد؛ الذي ضحينا من أجله طيلة سني مسؤوليتنا، قد ضاع.. ولكن، خجلاً عاتياً يغمرني، يترع وجداني بالحيرة والألم.. كيف سأنقل الخبر إلى رسول الله؟

الحاشية: **(بتأثر عميق)** والخطبة يا صلاح الدين؟

صلاح الدين: لن تروني أخطب بعد اليوم.. إن الخطب، يجب أن تستحيل عملاً وإنجازاً.. وكيف أخطب، والدخان يتصاعد من مسرى رسول الله؟ كيف يتأتى للكلمات أن تجتاز شفتي، وأنا أرى النار والرماد تلطخان الساحة؛ التي صلى فيها الرسول العظيم بإخوانه الأنبياء.. ثم غادر الأرض ـ فياليوم ـ العظيمة صوب السموات، حيث لقي خالقه؟ لن تروني أخطب بعد اليوم.. فيما مضى، كنت أخطب فيكم إثر كل فتح أو نصر.. وبعد كل عمل وإنجاز.. أما اليوم، فلم يبق عصر السلب والانهزام هذا مجالاً للكلمات.. وأحرى بالمسلمين بعد اليوم، أن لا يسألوا كلمات وخطباً.. ولكن أن يفتحوا أسماعهم جيداً لأصوات..

(تسمع أصوات انفجارات قوية متتالية تنبعث من أماكن شتى.. يتلاشى المنادي.. تختفي أصوات

صلاح الدين وحاشيته . . تغيير في الإنارة المسرحية، نرى بعدها الفدائيين اللذين شهدنا حوارهما من قبل)

الفدائي الأول: (كمن يستيقظ من حلم عميق) أتسمع؟ ! رباه . . لقد نجحت العملية . .

الفدائي الثاني: (وكأنه يستيقظ هو الآخر من الحلم العميق) إنهم يمطرون القدس الجديدة لأول مرة بالصواريخ . .

الفدائي الأول: ليعلم قادة يهود . . وشذاذ الآفاق . . أن أحفاد صلاح الدين، لن يسكتوا إزاء تدمير قبلتهم الأولى ومسرى نبيهم العظيم (في ذهول) وإنهم يستجيبون إليه بعد لحظات من دعوته إياهم، بأن يستبدلوا الرؤى بالحركة، والكلمات بالأفعال . . وبدلاً من أن يسمعوا أعداء الله وأعداء الرسول أصواتاً رتيبة هادئة، عليهم ـ منذ الآن ـ أن يسمعوهم صراخاً . . وأن يمطروهم ناراً . .

الفدائي الثاني: (بدهشة بالغة) أنت أيضاً؟!

الفدائي الأول: ماذا؟

الفدائي الثاني: نفس النداء انبعث إلي . . وبعد لحظات فحسب، بدأت صواريخ إخواننا تتفجر غضباً وناراً تتفجر على رؤوس الملعونين . . (**يتعانقان . .**)

ـ ستار ـ

شيء عن الموت

(شرفة الباخرة كاردينيا المتوجهة من الجزائر إلى مرسيليا . . ترى في الجهة اليسرى نافذة واسعة، وباب مفتوح يفضي إلى الصالة العليا، حيث يجتمع المسافرون؛ للشرب وتبادل الأحاديث، وسماع الموسيقا والرقص. . أما الجهة اليمنى، فتطل على البحر؛ حيث يرى ممتداً إلى الأفق البعيد، وحيث ترى الشمس وهي تميل إلى الغروب. . عندما ترفع الستارة، نلمح رجلاً في العقد الخامس، يقف إلى حاجز الشرفة متأملاً البحر. . هندامه من النوع الطبيعي. . لا أناقة زائدة ولا إهمال بارز، يمدّ يده إلى جيبه، ويستخرج دفتر مذكرات صغير، ويدون بعض الملاحظات. . إنه الدكتور رباح أحمد الجزائري، المتخصص في علم النفس. . من الصالة، تنبعث موسيقا صاخبة وإيقاعات رقص عنيف. .)

د. رباح: **(يقفل دفتر المذكرات ويتحدث إلى نفسه)** إنهم لا يدعون أحداً يرتاح قليلاً. . هذه الصرخات المجنونة؛ التي تزعق كالوحوش الضارية. . لقد اختلطت على أصوات الآلات النحاسية، وصرخات الحناجر البشرية نفسها **(بغضب مكبوت)** آلات. . آلات رخيصة **(يفتح دفتر مذكراته ويقرأ)**

إنني أشعر بنشوة غامرة وأنا أقف هنا قبالة البحر والسماء.. أدون بعض أفكاري ومذكراتي.. إن الامتداد اللانهائي للبحر والسماء - وزرقتهما النقية كالبلور - يجعلان الإنسان يقف في قلب التجريد.. إنه نقيض الاكتظاظ والتخمة الشيئية؛ التي يحاصرنا بها عصر التكاثر هذا.. إنني أكاد أضع يدي على إحساس نقي، متفرد، طالما أفلت من بين يدي وأنا أتخبط في الزحام.. إنه **(التحرر)** من الشد الثقيل؛ الذي يرهق الناس ويفتت وجدانهم، التحرر؛ الذي يغسل رين القلب والعقل، فيغدوان أكثر استشرافاً للحقيقة والجمال.. والتصاقاً بهما.. آه**(يدوي صوت الموسيقا وضربات الطبول في الداخل.. يقفل الدفتر)** ولكن هذه.هذه... إنها تلاحقنا حتى في رحيلنا وتخيفنا.. إنها تفرض حصارها علينا حتى بين البحر والسماء.. هذه الآلات الرخيصة..

(يخرج من الصالة شاب في الخامسة والعشرين من عمره، ذو ملامح مغربية ناعمة، وبدلة غاية في أناقتها.. يتجه إلى الشرفة وهو يحمل حقيبة صغيرة من النوع الخاص بالأوراق.. يلمح الدكتور رباح، فيحييه باحترام بالغ..)

المغربي: فرصة سعيدة دكتور رباح.. إنني في الحقيقة أغبط نفسي؛ إذ جمعتني هذه الرحلة بك.. قال لي بعض الأصدقاء؛ إنك ذاهب إلى جامعة ليون في رحلة تستغرق شهرين؛ لمتابعة بعض بحوثك وتجاربك هناك..

د. رباح: هذا صحيح.. أين تعتزم الذهاب؟

المغربي: (**بابتسامة سعيدة**) إلى الجامعة نفسها؛ للتخصص في علم الاجتماع..

د. رباح: علم الاجتماع؟ هذا شيء رائع..

المغربي: لقد حصلت على بعثة دراسية من وزارة التعليم أمدها ثلاث سنوات.. هل تعتقد أن هذا يكفي للحصول على الدكتوراه؟

د. رباح: بكل تأكيد..

المغربي: ومع ذلك، فقد أعطوني شبه وعد بأنهم سيمددون الفترة الممنوحة ستة أشهر أخرى إذا اقتضى الأمر..

د. رباح: لا أعتقد أنك ستحتاج إليها إذا شمرت عن ساعد الجد..

المغربي: من أجل ذلك، جئت ألتمس مشورتك.

د. رباح: (**كمن يتذكر شيئاً مهماً**) ولكن قل لي: في أي موضوع تنوي أن يكون بحثك؟

المغربي: لم أقرر إلى الآن.. وإن كنت أنوي أن أعكف على..

د. رباح: (**مقاطعاً**) ماذا لو أعددت العدة لدراسة موضوع، طالما أغفله الباحثون، سواء في التخصص؛ الذي أعمل فيه.. أم في علم الاجتماع هذا..

المغربي: (**بنفس الابتسامة**) ستكون كلماتك وآراؤك بمثابة الضوء؛ الذي سأقطع الطريق على هديه.. هذه أول مرة أغادر فيها إلى فرنسا.. إنني رهن مشورتك.

د. رباح: (**وهو ينظر إلى الأفق**) الموت !!

المغربي: (**بدهشة**) الموت؟

د. رباح: واقعة الموت.. ردود فعل جماعة بشرية ما تجاه واقعة الموت.. تحليل منحنيات هذه الردود كماً ونوعاً، وتكثيفها في أنماط معينة، يمكن أن تنسحب على كافة الجماعات.

المغربي: ولكنه، أقرب إلى علم النفس..

د. رباح: ليس بين العلمين سوى حاجز رقيق شفاف.. سرعان ما يتلاشى إذا ما عرفنا أن كلا العلمين

يبحثان في الإنسان فرداً، والإنسان في جماعة. . ثم إنني أبحث عمّن يعينني في مهمتي؛ التي أسافر من أجلها. .

المغربي: أية مهمة؟

د. رباح: ردود فعل الإنسان تجاه واقعة الموت. .

المغربي: إنها كما قلت إذاً. . مهمة علماء النفس.

د. رباح: لا فرق. . لا فرق. . الاجتماع، النفس، حتى التاريخ والفلسفة والدين، كلها تبحث في الإنسان. . وهنالك من يدعو اليوم إلى إدخال البعد الإنساني في أشد العلوم المحضة؛ نأياً عن العلاقات البشرية. . الرياضيات مثلاً. .

المغربي: ولكن في الموضوع بعداً ميتافيزيقياً. . امتداداً غيبياً. . وأنا، أرفض الميتافيزيقا، وأرفض الغيب!!

د. رباح: **(بابتسامة رقيقة)** ستقول: إنهما نقيضان للدراسة العلمية؛ التي تسعى إلى حصر الوقائع المادية المنظورة، وتفحص سلوكها تجاه تأثير ما؛ لتبين النتائج، التي تؤول إليها، والقوانين؛ التي تتحكم في توجهها ذاك صوب النتائج. .

المغربي: بالضبط، إنني ذاهب للتخصص في العلم. . لا الخرافة!!

د. رباح: على رسلك.. ولا تسرع في تكديس الألفاظ بعضها فوق بعض.. إن هذا لا يخدم نقاشنا.. ثم إنني أعتقد أنك قد بلغت حداً من النضج؛ يجعلك تتجاوز مرحلة المحفوظات..

المغربي: **(وكأنه قد بوغت)** المحفوظات؟

د. رباح: ترداد الكلمات والأفكار كعبارات جاهزة، دون تبين الفرق النوعي بينها.. دون إدراك الأبعاد الحقيقية؛ التي تفصل بعضها عن البعض الآخر..

المغربي: ولكن، جميع الأساتذة الذين تلقيت محاضراتي عليهم، أكدوا لي هذا..

د. رباح: تقصد معظمهم.. أليس كذلك؟

المغربي: تقريباً..

د. رباح: **(يربت على كتفيه)** عالم الاجتماع أولى بأن يكون حذراً تجاه التعميم.. ماذا تحب أن تشرب؟

المغربي: أشكرك.. لا أشتهي شيئاً.. لقد شربت قبل قليل قنينتين من البيرة..

د. رباح: أعتقد أن الشاي الممزوج بالحليب، يمكن أن يرطب حلوقنا.. إن أمامنا حديثاً طويلاً **(يصفق فيطل أحد الخدم من النافذة المجاورة)** كوبان من

الشاي الممزوج بالحليب رجاء(**يلتفت إلى المغربي**) قلت: إنك ترفض الميتافيزيقا أو الغيب إذا شئت. . أليس كذلك؟

المغربي: بالضبط.

د. رباح: والميتافيزيقا أو الغيب، يمتدان إلى كل ما لا تقدر حواسنا النسبية المحدودة على التواصل معه. . كل ما لا تراه العيون، أو تلمسه الأيدي، أو تسمعه الآذان. . إلى آخره. . وبالتالي يصعب حصره مخبرياً؛ لتفحص طبيعة عمله. .

المغربي: بالضبط. .

د. رباح: ولكن، إذا قدرنا على التواصل مع هذا العالم بوسائل أخرى غير الحواس، فهل لنا أن ننكره، أو نرفض التعامل معه؟

المغربي: ليس ثمة غير الحواس ما يحملنا إلى النتائج الصحيحة. . النتائج اليقينية. .

د. رباح: في العلم، ليس ثمة نتائج يقينية. . هذه مسلمة، يجب ألا تخدعنا عنها فلسفة العلم المبهورة. . إذا كان العلماء أنفسهم يؤكدون على ذلك، فليس للفلاسفة أن يزيدوا عليهم. . إنهم، في هذه الحالة، سيكونون ملكيين أكثر من الملك، كما يقول

المثل.. ثم إن الفلسفة لا تمس الوقائع بالحس، بقدر ما تتعامل معها بالفكر، والمنطق، والتبصر..

المغربي: مهما يكن من أمر، فإن الحواس هي سيدة الموقف، وهي سفينتنا إلى الحقيقة النهائية..

د. رباح: (**مشيراً إلى الأفق**) انظر.. أترى إلى أشعة الشمس الصفراء، وهي تميل إلى أن تكون أكثر دكنة لحظة بعد لحظة؟ إنها، ستغدو بعد قليل حمراء بلون الدم.

المغربي: شيء رائع حقاً.. كنت أحلم بهذا المنظر..

د. رباح: (**مستمراً**) من كان يعرف إلى عهد قريب أن ضوء الشمس هذا، يتضمن كذلك الأخضر والأزرق وغيرهما من الألوان؟

المغربي: لا أحد..

د. رباح: كانت هذه الألوان الخفية غيباً.. كانت ميتافيزيقا.. وكان البحث عنها محاولة غير مجدية قبل عدة قرون.. من قال: إن قوانين الكون والعالم وموجوداتهما قد تكشفت كلها؟ من قال: إن الغيب؛ الذي لا نراه الآن، لا يمكن أن نرى بعض جوانبه الأخرى في مستقبل قريب أو بعيد؟ في أزمان وأماكن أخرى، وبأجهزة أكثر رقياً وتعقيداً؟

المغربي: ولكنني، أقصد الحصر المخبري..

د. رباح: (**مستمراً**) لم يقدر لأحد حتى الآن، أن يحصر الضوء مختبرياً ويتفحص تركيبه النهائي. . إنها مجرد تخمينات. . فإذا عدنا إلى مسألة الألوان مرة، أخرى تبين لنا كيف أنهم تمكنوا من كسر حاجز الألوان السبعة، إلى ما فوق البنفسجي وما دون الأحمر. . ومن يدري؟ من يدري؟ (**بلهجة ذات مغزى**) إنه لا يزال غيباً. . ونويات المادة، أعلنت أخيراً العصيان على سادة المختبر، فاستسلموا بعد صراع طويل، وأعلنوا أن تركيب المادة الكونية أمرٌ غيبيٌّ !!

المغربي: دكتور رباح. . أعتقد أننا قد ابتعدنا عن الموضوع. . وأنا جئت أطلب مشورتك. .

د. رباح: بالعكس. . إننا في صلب الموضوع. . فها أنا ذا أستطيع أن أقول: إن ظاهرة الموت كالضوء تماماً، تحمل الوجهين معاً. . ما يرى وما لا يرى. .

المغربي: الموت ـ هو في نهاية التحليل ـ تلف في الأنسجة، وتحلل في تركيبها، وعدم قدرتها بالتالي على مواصلة العمل.

د. رباح: هذا هو الوجه الأول. . ولكن هناك وجهاً آخر، أبعد وأخطر وأكثر تعقيداً. .

المغربي: إذا تجاوز العلم هذا الوجه، تحول إلى دين وفلسفة. .

د. رباح: أنا معك في هذا، ولكن نفي وجود الوجه الآخر للموت، مسألة غير علمية.. إذا فهمنا العلم ـ بتواضع ـ على أنه البحث عن الحقيقة.. فإن السؤال الأبدي، لماذا كتب على الأجهزة أن تتلف؟ لماذا نموت؟ فإذا قدرنا على الإجابة عن سؤال كهذا بأنه سن الشيخوخة؛ التي تمضي بكل الحيوات والأشياء، إلى نهايتها المحتومة، إذا قدرنا على هذا، فإننا سنقف عاجزين في الخطوة التالية، وهي أن الإنسان يموت في كثير من الأحيان، ومعظم أجهزته سليمة تماماً، تمارس مهمتها بقدر كبير من الحيوية.. ومع ذلك، فهو يموت.. لا ريب أن هنالك قوة ما بانفصالها عن ألياف الإنسان وأجهزته تصبح هذه الألياف والأجهزة عديمة النفع.. عديمة الجدوى.. لقد اعترف العلماء الكبار.. بعجزهم عن فهم عمل الدماغ البشري.. وهذا ينسحب ـ بطبيعة الحال ـ، على عمل الروح...

المغربي: **(وهو يرفع صوته ليتغلب على زعيق الموسيقا)** ولكنني ذاهب إلى هناك؛ لتحقيق هدف محدد.. علم الاجتماع..

د. رباح: ليتهم يكفون قليلاً.. إنهم لا يرتاحون ولا يدعون أحداً يرتاح.. ومن قال لك: إن عليك أن تبحث حقيقة الموت؟

المغربي: ماذا إذاً؟

د. رباح: أنت سقتني إلى هذا الموضوع؛ لأبين لك بعض المسائل؛ التي تخفى على الكثيرين من المبهورين بمنجزات العلم الحسي التجريبي.. رغم أن الكبار - ممن صنعوا هذا العلم وكشفوا عن سننه - أكثر تواضعاً وأقل غروراً.. إنني عرضت عليك دراسة ردود فعل عينة اجتماعية تجاه واقعة الموت.. وهذا من صميم عملك..

المغربي: كيف؟ إن حصر عدد كبير - نسبياً - من الناس؛ لتفحص ردود أفعالهم تجاه واقعة الموت، مسألة مستحيلة.. هل أجازف بالذهاب إلى ساحة الحرب؟

د. رباح: **(وهو يتفحص أناقة المغربي)** لا أعتقد أن هذا بمقدورك..

المغربي: الجلوس طويلاً في ردهة مستشفى ما؛ لتفحص ردود فعل مجموعة من الذين يعانون مرضاً خطيراً؟ إن هذا يجابهنا بمشكلة أخرى.. ضيق مساحة العينة الاجتماعية المراد دراستها..

د. رباح: ولا هذا..

المغربي: **(مبتسماً)** كان علي أن أكون في هيروشيما، أو ناغازاكي، وهي تتعرض للدمار الذري.. إنها أكبر (عينة) في تاريخ الأبحاث..

د. رباح: (**بتأثر**) لا تزال ردود الفعل محفورة في أعصاب الأبناء والأحفاد، منقوشة على جباههم. . يقال: إنها تنتقل إليهم على محمولات الوراثة. . لا، ليس هذا.

المغربي: ولكن (**يحاول أن يرفع صوته للتغلب على زعيق الموسيقا مرة أخرى، فإذا بالموسيقا تكف فجأة، فيشعر بالحرج، ويخفض صوته**) ولكن. . (**نسمع من أجهزة تكبير الصوت داخل الصالة نداء من قائد السفينة وهو يخاطب الركاب**).

قائد السفينة: أيها الركاب الأعزاء، ليست هذه هي المرة الأولى التي تجابه فيها سفينة ما بعض المتاعب. . لا نريد أن نخفي شيئاً عليكم، من أجل أن تكونوا أكثر وعياً بما يحدث، واستعداداً لمزيد من التحمل والانضباط. . لقد حدث ارتطام جزئي في مقدمة السفينة بجسم مركب قديم، كان قد استقر في الأعماق - على ما يبدو - منذ فترة بعيدة. . ولقد أحدث الارتطام شقاً في الجهة اليسرى من المقدمة، فأخذ الماء يتدفق منه بغزارة. . لقد طلبنا قبل ربع ساعة من ركاب الطابق الأرضي أن يصعدوا إلى الطوابق العليا؛ لكي يتاح لنا التحرك بحرية لمجابهة الثغرة؛ التي يتدفق منها الماء. . إن محاولات جادة ومستمرة تجري لإصلاح الخلل، وإن كنت لا أكتمكم أنه أخذ بالاتساع، رغم كافة المساعي. .

وكل ما نرجوه، هو المزيد من الهدوء والانضباط . .
والمزيد من الالتزام بتعليماتنا؛ التي ستصدر تباعاً . .

المغربي: (**بحزن شديد**) كنت أحمل معي طالعي المشؤوم منذ اللحظة؛ التي ولدت فيها . . ماتت أمي؛ لحظة خرجت إلى هذه الدنيا السوداء . . عشرون سنة، وأنا أكد؛ من أجل أن أصنع مستقبلي . .

د. رباح: ها نحن بدأنا نضع خطواتنا في دائرة الخرافة . . أي طالع مشؤوم هذا؟! إننا جميعاً نتعرض لنفس المحنة، وها هن أمهاتنا لا يزلن أحياء . .

المغربي: (**غير ملتفت إليه**) وعندما أصبحت على بعد خطوات . . ها هي اللعنة تطاردني إلى هنا . . من كان يتصور أن الباخرة؛ التي سأستقلها ـ من بين مئات البواخر؛ التي تقطع البحار والمحيطات بالعشرات والمئات ـ تتعرض للغرق؟

د. رباح: ومن قال لك: إنها تتعرض للغرق؟ إن السفن كثيراً ما يحدث لها هذا، ولكنها، كانت في كثير من الأحيان، تخرج من المحنة بسلام . .

المغربي: (**ساخراً**) بسلام؟ ما دمت أنا موجوداً فوقها، فثق أنها لن تخرج بسلام . .

(صوت قائد السفينة يرتفع مرة أخرى عبر أجهزة التكبير)

قائد السفينة: أيها الركاب.. إن الخرق أخذ بالاتساع.. والماء يتدفق بقوة.. ولقد أصاب الخلل جهاز الاتصال نفسه، فلم يعد بمقدورنا الاتصال بأية جهة.. إن زوارق الإنقاذ محدودة لا تستوعب هذا القدر الكبير من المسافرين.. لذا، نكرر ضرورة الالتزام بالانضباط؛ ريثما يتاح لنا إيجاد مخرج من المأزق؛ الذي نتعرض له جميعاً.. إنه لا يزال هنالك أمل، فلا تيأسوا..

المغربي: ألم أقل لك؟

د. رباح: (**بابتسامته المعهودة**) بدلاً من هذا التشاؤم.. من هذه النظرة السالبة.. يمكنك التشمير عن ساعد الجد.. إنها فرصة ذهبية..

المغربي: التشمير عن ساعد الجد والموت على بعد خطوات منا؟ أية فرصة ذهبية هذه؟

د. رباح: أنسيت هكذا بسرعة؟ ما كنت أتوقع أن رد فعلك تجاه الموت يمكن أن يندرج تحت النمط الشائع، أنت الذي تتقدم للصعود إلى قمة الثقافة.

المغربي: (**بيأس**) تجاه الموت، يستوي الأمي والمتخصص.

د. رباح: (**باطمئنان عجيب**) معنى هذا، أن هنالك رد فعل واحد تجاه هزة الموت.. أين يذهب إذاً التغاير النوعي والكمي في المحصلات الوراثية والبيئية؟

المغربي: (**مقاطعاً**) وماذا بصدد المعلومات؛ التي سأجمعها؟ هل سيتاح لي أن أعكف على دراستها هناك في مختبرات جامعة ليون؟ إنه عبث لا طائل تحته، فالمعلومات وأصحابها، سيغدون ـ عما قريب ـ طعمة للأسماك. .

د. رباح: من يدري؟ إنه ما دام هنالك أمل، فإنه يتوجب علينا أن نسعى. . أن نواصل اجتياز الطريق إلى طموحاتنا وأهدافنا. . ألا نرمي بخططنا ومشاريعنا جانباً. . إنه المبدأ؛ الذي أوصانا به رسولنا العظيم «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر». إنها فرصة ذهبية ولن تتكرر مرة أخرى. . إنها الفسيلة؛ التي قد تخدمك في مهمتك، وقد تغدو شجرة خضراء هناك. .

المغربي: (**بتحسر**) هناك؟ آه. . هل يكتب لنا أن نصل إلى هناك. .؟!

د. رباح: سواء أكتب لنا أن نصل أم لا، فإن علينا أن نعمل حتى آخر رمق في حياتنا. هيا، ادخل إلى الصالة، وادرس ملامح الوجوه، والتق بالمسافرين واحداً واحداً، ثم اسألهم عن كل شيء ذي قيمة مر في حياتهم. . عن خبراتهم. . عن مطامحهم. . عن

مخاوفهم.. عن مواقفهم تجاه الكارثة.. دوّن هذا كله في أوراقك، فلعلك مستفيد منها يوماً.. هيا..

(يدفعه إلى الداخل ويعود إلى مكانه من الشرفة وهو يبتسم.. يدخل قائد السفينة الكابتن إدريس مبتسماً هو الآخر.. يتجه إلى حيث يقف دكتور رباح..)

كابتن إدريس: أعتقد أن الأمور تسير على ما يرام؟

د. رباح: **(مربتاً على كتف إدريس)** أشكرك جداً!!

إدريس: هل ستبدأ عملك؟

د. رباح: لقد بدأته قبل لحظات..

إدريس: ولكنك لا تزال تقف في مكانك.. إن مختبرك، هناك **(يشير إلى الصالة)**.

د. رباح: أتريد أن أصدقك القول؟ لقد ضربت عصفورين، بحجر واحد.. إنني أقوم بتجربة مركبة ساقتها الصدفة إلي..

إدريس: كيف؟

د. رباح: طالب جامعي ذاهب إلى فرنسا؛ للتخصص في علم الاجتماع.. لقد أقنعته ـ بعد طول نقاش ـ بتولي التجربة بنفسه، وجمع البيانات، وتحليلها.

إدريس: وهل أعلمته بالأمر؟

د. رباح: كلا . .

إدريس: ولكن . .

د. رباح: لأنه لا يعرف . . ستكون التجربة مركبة . . ستكون البيانات والتعقيبات مثيرة فعلاً . . إن جمع وتفحص الأنماط المتباينة تجاه واقعة الموت، سيتولاها باحث يعاني ـ هو نفسه ـ من رعب الموت . . وعلى أية حال فسواء كلفته بالتجربة أم لا ، فإنه كان مقدراً عليه أن يجابه الرعب نفسه . . أليس هو واحداً من بين مئات المسافرين المتكدسين هناك؟

إدريس: إنني أهنئك على أية حال . . إن محاولتك هذه، لن تخدم قاعات البحث فحسب، بل المخرجين السينمائيين أيضاً ! !

د. رباح: لولا مساعدتك، لما قدرت أن أفعل شيئاً . .

إدريس: الحق، إنني وجدت صعوبة بالغة في إقناع كبار المسؤولين ـ في شركة الملاحة ـ بالموافقة على التجربة . .

د. رباح: **(مبتسماً)** على تخويف المسافرين، وتدمير سمعة الشركة بالتالي . .

إدريس: **ولكنني قلت لهم؛ إن الحقيقة ستتكشف للمسافرين أنفسهم، خلال ساعتين فحسب.**

د. رباح: بعد أن يكون معظم المسافرين قد أقسموا ألا يسافروا بحراً بعدها . .

إدريس: ثم إن التماس الجامعة الرسمي، أعانني كثيراً . . وأخيراً، حصلت على الموافقة . .

د. رباح: كنت أحلم بتجربة كهذه، ولذا، فإنني كنت مستعداً لأن أرمي بكل ثقلي للحصول على الموافقة . . إن هذه محاولة أولى من سلسلة محاولات قد أقوم بها في المستقبل . . لا بد من المجازفات، إذا ما أردنا الحصول على نتائج ذات قيمة . . إن رواد العلم الحديث، حققوا منجزاتهم العظيمة بالمجازفات . . إنه ما من حضارة تريد أن تقطع خطوات كبيرة إلى الأمام، إلا بوجود حشد كبير من المجازفين . . إن أجدادنا العظام، صنعوا ـ هم الآخرون ـ حضارتهم بالمجازفة . . منذ اللحظة؛ التي خرجوا فيها من جزيرتهم، يحملون عقيدتهم الجديدة إلى العالم؛ لكي يتصدوا لأقوى الدول وأعتى الإمبراطوريات، وحتى قيام رجالهم الكبار ـ بعد قرون عديدة ـ باختراق الصحارى، والغابات، والبحار، والمحيطات؛ بحثاً عن الحقيقة . . إنني أشعر هذه اللحظة، أن روح ابن بطوطة الطنجي تباركني وتدفعني . . رغم أن هذه هي بداية فقط . . البداية؛ التي لا تكلفني شيئاً . . ولكنني، أطمح إلى ما يكلفني فعلاً . .

إدريس: أرجو ألا تكون محاولتك القادمة على متن إحدى الطائرات.. إنه لأمر مرعب حقاً.

د. رباح: لا ليس هذا.. هنالك مجالات ومجالات..

إدريس: أتدري ما الذي يحدث في الصالة.. إنه أمر مثير حقاً..

د. رباح: بعد أن كلفت الطالب المغربي بمهمة جمع البيانات، يمكنني أن أدخل الصالة؛ لأعاين ملامح المسافرين، بعيداً عن القيود والمهمات الأكاديمية؛ التي أرهقتني. إنني، سأدخل الصالة فناناً، لا عالماً.. ومن يدري؟ فقد أخرج من التجربة برصيد تعبيري كبير.. سيما وأنني أملك بعض القدرات في مجال الرسم.. إن لوحة الكريكو **(الصرخة)**، تفرض علي نفسها وأنا أتخيل ملامح المسافرين هناك..

إدريس: لقد اجتزت الصالة قبل قليل.. مساكين.. إن أكثرهم رقصاً وجنوناً غدوا أكثرهم هدوءاً واستسلاماً.. أين ذهبت تلك الضجة؟ ها هو الصمت يخيم عليهم، وكأنهم يغطون في نوم عميق..

د. رباح: وما الذي حل بنافخي الأبواق وقارعي الطبول؟ لقد كادوا أن يأتوا على أعصابي..

إدريس: ها أنت الآن تثأر منهم، إنهم يتلوون رعباً وهلعاً.. لقد تقدمت من أحدهم، وطلبت منه أن ينفخ في بوقه.. قلت له: إنها فرصة حيوية ممتازة؛ لعزف لحن يعبر فيه عن رؤية الموت القريب، وإنني سأتولى تسجيله، فلربمّا يباع بثمن خيالي إذا ما سمع به عشاق الموسيقا النادرة في العالم، ولكنه، نظر إلي بعينين جاحظتين، ولم يجبني.. لقد تصور أن المسألة مجرد سخرية ثقيلة لا معنى لها..

د. رباح: لعله أجابك بما أجابني به الطالب المغربي.. إن ما سيعزفه، سيستقر صداه في الأعماق..

إدريس: لم ينبس ببنت شفة، فأردت أن أستفزه أكثر، قلت له: أين ذهب ذلك الهواء المضغوط في رئتيك، والذي يمكنك من النفخ، الدقائق الطوال دون أن تأخذ بديلاً عنه؟ لا بد أن شيئاً منه يدفعه للخارج؟ إنه شوق السجين إلى الحرية.. إن صدرك لم يعتد على حبس الهواء.. أتدري بماذا أجابني؟

د. رباح: (**ضاحكاً**) أنه سيدفع به للخارج، ولكن بطريقة أخرى!!

إدريس: (**ضاحكاً هو الآخر**) بالضبط.. كيف عرفت هذا؟

د. رباح: لا يوجد طريق آخر.. إما هذا أو ذاك.. وعلى أية حال، فقد ثأرت من زعيق الآلات وهي تصرخ في أذني طيلة أربع ساعات.. لقد منعتني حتى من كتابة بعض خواطري؛ التي كنت أؤثر أن أدونها هنا، في البحر، في لحظات المغيب المؤسية..

إدريس: اطمئن إذاً فإنها ستخرج بأسلوب بشري صرف..

د. رباح: ولكنها، ستعزف ألحاناً!!

إدريس: ليست ـ على أية حال ـ بالعنف؛ الذي تمارسه الأبواق..

د. رباح: وماذا عن البار؟

إدريس: لقد ذكرتني.. لم يبق فيه قنينة واحدة.. إنهم يريدون أن ينسوا..

د. رباح: ولكنهم سيغيبون أكثر مما يجب.. إن هذا، سيؤثر على بيانات صديقنا المغربي ولا شك..

إدريس: أظنك كنت تريد مني أن أقفل البار من أجل بياناتك؟

د. رباح: لا.. أبداً.. ومن يدري؟ فلعلها تدفعهم إلى الإدلاء بالحقيقة كاملة.. إنها، كالحلم نفسه، ستدفع بمعطيات لاواعيتهم إلى أن تكشف عن

نفسها أكثر. . فهناك يمكن أن يجد الباحث الشيء الكثير. .

إدريس: ولكن بعضهم فقد وعيه كلية، وتحول إلى مجرد كومة لا تسمع ولا ترى. . بل إنها لا تبدي ما ينبه إلى وجودها. .

د. رباح: كنت خائفاً من هذا. . ولكن، لا أعتقد أن الجميع حاولوا مجابهة الموقف؛ بالهروب من خلال هذه الأداة الرخيصة.

إدريس: بكل تأكيد. . فهنالك العشرات ممن التقيت بهم في الصالة، لا يزالون يحملون قدراً كبيراً من الشجاعة؛ لمجابهة الموقف. . إنهم بكامل وعيهم. . بل إن بعضهم عرض علي المساعدة. . وقال آخرون: إنهم على استعداد تام للتضحية بأنفسهم، إذا اقتضى الأمر، من أجل النساء والشيوخ والأطفال. .

د. رباح: لا ريب أن الطالب المغربي، سيدون هذا كله. . إن قيمة الحياة البشرية، تبدو في هذا التنوع في الموقف إزاء الأحداث والملمات. . ماذا لو تحول جميع المسافرين إلى كوم من اللحم الرخو المستلقية كالأشياء العتيقة المهملة هنا وهناك؟ وماذا أيضاً لو شمر الجميع عن سواعد الجد،

وظلوا عند نقطة التوتر الكامل.. نقطة الوعي والحرية والمسؤولية؟ إن بطولة هؤلاء لا تبرز وتتجسد إلا من خلال خلفية مليئة بالجثث الملقاة.. بأكوام اللحم الحية؛ التي هي أقرب إلى عالم الحشرات والهوام..

إدريس: ها أنت بدأت ترسم لوحتك الأولى..

د. رباح: (مستمراً) إن ما يريده البعض من توحيد أنماط السلوك البشري إزاء المؤثرات المختلفة، وصبها في قالب واحد ـ كما يصب سائل الحديد الصلب ـ مسألة مستحيلة.. ليس لأن هناك تبايناً محتوماً يمتد عمودياً بالمؤثرات الوراثية، وأفقياً بالمعطيات البيئية.. ولكن ـ أيضاً ـ لأن فلسفة الحياة البشرية وقيمتها، وتفردها على سائر الحيوات، تقتضي هذا التنوع.. هذا التغاير في أنماط السلوك، والاستجابات للأحداث والتحديات.. وما دامت هنالك متغيرات على مستوى الوراثة والبيئة.. وما دامت هناك ضرورات عليا على مستوى هدف الحياة البشرية، وطبيعة صيرورتها الدائمة، فإن المسافرين على ظهر البسيطة، سيتخذون ـ دوماً ـ مواقف متغايرة.. تماماً كالمسافرين على ظهر كاردينيا هذه.. إن البيانات؛ التي سنجمعها، ستخدمنا على هذا المستوى.. فضلاً عن نطاق

البحث العلمي الصرف. . إنني أشكرك مرة أخرى يا كابتن إدريس. .

إدريس: رغم صعوبة الموقف ـ بالنسبة لقائد سفينة مهمته أن يصل بالمسافرين إلى هدفهم بأكبر قدر من الأمن والفرح ـ فإنني أشعر ـ لأول مرة ـ أنني أجتاز عالماً جديداً. . أشعر أنني خرجت ـ لأول مرة ـ عن روتين السفر القاسي، ومهماته الوظيفية المملة. . إنني أستشعر ـ لأول مرة ـ طعم الجدة، والتوقع، والغرابة؛ التي تهبها الرحلات الأولى للمسافرين. .

د. رباح: وهل ضمنت ألا يتسرب النبأ عن طريق القباطنة الآخرين؟

إدريس: بكل تأكيد. . إنهم يعملون معي منذ اثني عشر عاماً على ظهر السفينة نفسها. . لقد غدونا عائلة واحدة تسودها الثقة والمحبة. . وما أقوله لهم، يضعونه في قلوبهم. . لست رئيسهم، ولكني صديقهم، وهذا سر نجاحي معهم. . لقد أصابتهم الدهشة أول الأمر. . إلا أنني، تمكنت من إقناعهم بسهولة. .

د. رباح: وماذا بصدد البعثة الدبلوماسية الجزائرية؟

إدريس: لا تخف عليهم !! إنهم جميعاً من مجاهدي جبهة التحرير. . ليست هذه هي المرة الأولى؛ التي

يلتقون فيها بالموت. . لقد رأوه مراراً، وهم يقاتلون ببطولة نادرة، من أجل تحرير أرضهم وشعبهم. . إنهم ـ بقدرتهم على مجابهة الموت ـ صنعوا مصير أمتهم العظيم. . ستدخل ولا ريب، وتراهم بأم عينيك، إنهم يقفون هناك، دون أن تغادر الابتسامة شفاههم. . يتحدثون فيما بينهم، كما لو أن أمراً لم يقع. . وأن السفينة؛ التي تقلهم، ربما ستستقر بهم بعد قليل في الأعماق. . لقد هزني منظرهم، وهم يؤدون صلاة العشاء بشكل جماعي مؤثر. . بينما الآخرون؛ الذين كانوا لفترة قريبة، يرقصون بجنون على أصوات الموسيقا الصاخبة. . يتكومون هناك، في الزوايا، وقد فقدوا كل قدرة على الحركة. . أتدري؟ إنهم هم الذين عرضوا علي المساعدة، وأعربوا عن استعدادهم للتضحية إذا اقتضى الأمر. .

د. رباح: **(كأنه يتذكر أحداثاً طال عليها الأمد)** إنهم أصدقاء الجهاد يا كابتن إدريس. . لقد عملت معهم طيلة عشر سنين. . إنني أعرفهم جيداً. . تجسيد حي لكل معاني النبل والبطولة في تاريخ الإنسان. . لقد كانت تلك ساحتي الحقيقية، ثم تحولت إلى الجامعة؛ لأجد في أروقتها الجبن، والنفاق، والصغار، والمذلة. . يبدو أن العلم لا يقدر على حماية الأخلاق البشرية من الدمار والتفكك؛ ما لم

يكن محصناً بقوة الإيمان.. لقد كان هؤلاء المجاهدون مؤمنين حقيقيين، ولهذا صعدوا إلى القمة، وتمكنوا من تحقيق النصر العظيم.. وبدون هذا الإيمان النقي.. هذا الإيمان العفوي المتدفق.. فلن تستطيع أشد العلوم تقدماً، وأكثر فروع التخصص تعمّقاً أن تحمي الإنسان.. وما قيمة الحياة الدنيا إذا ضاع الإنسان، ماذا ينفعنا ـ كما يقول المثل ـ إذا كسب الإنسان العالم كله وخسر نفسه **(ينظر إلى ساعته)** ألم يحن الوقت؟

إدريس: **(مشيراً إلى الصالة)** لإعادتهم إلى الحياة ثانية؟

د. رباح: كلا..

إدريس: ماذا إذاً؟

د. رباح: لتصعيد الرعب درجة أخرى.. إيصاله إلى الحد الأقصى..

إدريس: هل تعتقد أنهم سيتحملون ذلك؟ لقد أبقينا لهم شيئاً من الأمل، فماذا لو أتينا عليه؟

د. رباح: لا بد من الإتيان عليه، إذا ما أردنا استكمال التجربة، سأدخل لأرى بنفسي وقع النبأ المفجع عليهم.. فلعل صاحبنا لا يستطيع بعدها أن يواصل العمل؟

إدريس: وهل سيستمر ذلك طويلاً؟

د. رباح: أبداً.. دقائق فحسب.. لا أريد أكثر من عشر دقائق، أو عشرين، فهذا يكفي..

إدريس: سأذهب لإعلان النبأ.. ما دمنا نتقدم صوب نهاية تجربتك هذه، فلا بأس..

(يغادر المكان، بينما يدخل دكتور رباح الصالة.. تبقى الشرفة خالية للحظات، ثم ما نلبث أن نسمع صوت الكابتن في مكبرات الصوت ينبعث من الصالة).

كابتن إدريس: أيها المسافرون، لقد بذلنا كل جهد ممكن؛ لإنقاذ السفينة من المصير المؤلم؛ الذي ستنتهي إليه دون جدوى.. إن الخرق ازداد اتساعاً، ولم يعد بمقدورنا التصدي لتيار الماء الهائل؛ الذي أخذ يتدفق منه.. إن الطابق الأسفل من السفينة أصبح مغطى بالماء.. وهو الآن يرتفع باتجاه الطابق الثاني.. لقد انسحبنا من غرفة القيادة، بعد أن أصابها تلف قاتل.. أيها المسافرون، إننا نعلمكم بالحقيقة المفجعة.. الحقيقة المرة.. إن السفينة توشك على الغرق..

(تسمع أصوات صرخات واستغاثة وبكاء عنيف من داخل الصالة..)

كابتن إدريس: قليلاً من ضبط الأعصاب أيها المسافرون، فلعل معجزة تحدث، فتقلب تقديراتنا رأساً على عقب..

صوت: **(من داخل الصالة)** لنجر قرعة أيها السادة على زوارق الإنقاذ..

صوت آخر: لا داعي للقرعة أبداً.. الأطفال، والنساء، والشيوخ، أولاً..

الصوت الأول: الشيوخ شبعوا من الدنيا.. والأطفال لا يحسون.. أما النساء..

صوت ثالث: **(يقاطعه)** أنصتا، إن قيادة السفينة تؤكد لنا بأن زوارق الإنقاذ قد أغرقت كيلا تحدث ارتباكاً مميتاً بين الركاب؟

الصوت الأول: ولكننا، سنغرق.. يا إلهي..

الصوت الثالث: نغرق معاً.. أو ننجو معاً..

الصوت الثاني: كان أحرى بهم أن يبقوا الزوارق من أجل الأطفال، والنساء، والشيوخ..

الصوت الثالث: لكن هنالك من ينافسهم.. ألم تسمعه؟ إنه واحد من بين عشرات..

(يخرج من الصالة شاب متأنق يلبس قميصاً مشجراً وبنطلوناً صارخ اللون، وحذاء ذا كعب عال..

يبدو أنه مخمور إلى حد كبير.. يقف عند حاجز الشرفة وينظر إلى البحر..)

الشاب: ماذا لو سمحوا لي بواحد من زوارق الإنقاذ؛ لكي ينقلني إلى حبيبتي.. آه، إننا لن نلتقي بعد الآن يا سيمون.. لن نلتقي بعد الآن.. لو كان بمقدوري أن أعبر إلى ساحل فرنسا سباحة، لفعلت.. ولكنني مرهق. مرهق... وأنت بعيدة.. بعيدة.. آه يا سيمون، ستنتظرينني طويلاً.. وبدلاً من أن آتيك؛ لأخذك بالأحضان، سأستقر هنالك في الأعماق، وستنتظرينني طويلاً.. وأخيراً، سيصلك النبأ المفجع.. أن كاردينيا قد تحطمت، وأن حبيبك قد مات.. ماذا لو سمحوا لي بواحد من زوارق الإنقاذ؟ **(يبكي ويتهاوى عند جدار الشرفة)..**

صوت: **(من داخل الصالة)** أيها الإخوة، لماذا تتهاوون هكذا ويخنقكم اليأس؟ انهضوا، واستعدوا للحظة الحاسمة.. إننا يجب أن نتشبث بكل شيء من أجل مغالبة الموت.. إن حطام السفينة نفسه قادر على أن يحملنا الساعات الطوال.. ولعله يأتي خلالها من ينقذنا.. غالبوا يأسكم وانهضوا.

صوت ثان: إننا ميتون.. ميتون.. وأحرى بنا أن نستقبل الموت بهدوء..

صوت ثالث: أريد أن أغمض عيني، وأسد إذني، وأغيب عن الدنيا، قبل أن يغيبني البحر.. إن أشد ما يخيفني، رؤية البحر وهو يلتقم بني آدم..

الصوت الأول: لكنكم، لستم نساء ولا أطفالاً.. إنكم رجال، وإن عليكم أن تعطوهم مثلاً..

الصوت الثاني: نعطيهم مثلاً؟ ها.. ها.. ها.. إننا سنموت أيها الرجل.. سنموت..

الصوت الأول: وماذا في ذلك؟ ألم تكن ستموت في يوم ما؟ من كان سيضمن حياتك هناك في فرنسا لو وصلت؟ إنك معرض للموت في كل مكان.. إنها حتمية لا مفر منها.. وبدلاً من أن نهرب منها، علينا أن نجابهها بشجاعة..

الصوت الثالث: كفاك فلسفة أيها الرجل.. اذهب إذا شئت، وجابه الموت بشجاعة، أما نحن، فدعنا نستقبله بالطريقة التي تريحنا.. كفاك.. أرجوك..

(ما يلبث صوت الكابتن أن يعلو من مكبرات الصوت).

الكابتن إدريس: أيها المسافرون.. يا من تحملتم المحنة الرهيبة بشجاعة.. لقد آن لكم أن تتلقوا النبأ العظيم.. لقد تمكنا أخيراً، وببطولة وشجاعة ملاحي

السفينة، من سد الثغرة، وإصلاح العطب في غرفة القيادة.. وها نحن نشغل أجهزة سحب الماء؛ لتفريغ الطابق الأول.. لقد زال الخطر نهائياً.. تهانينا. ستستأنف سفينتكم المحبوبة كاردينيا طريقها إلى مرسيليا.. تهانينا..

(تسمع من داخل الصالة صرخات فرح هائلة وعناق، وقبلات، وأصوات متداخلة.. وما تلبث موسيقا الجاز أن تعوي من جديد بعنف جنوني بالغ.. يخرج دكتور رباح والطالب المغربي وهما يبتسمان..)

المغربي: **(بفرح غامر مشوب بإرهاق بالغ)** لقد كانت تجربة إذاً؟

د. رباح: ألم أقل لك إنها فرصة ذهبية؟

المغربي: ولكن، بعد أن عانت وجوهنا من صفرة الذهب.. لقد امتلأت رعباً أيها الدكتور، ولم أستطع مواصلة مهمتي بعد إعلان البيان الثاني..

د. رباح: ولهذا، تداركتك في هذه اللحظة، لكي أواصل بنفسي المهمة الصعبة..

المغربي: كنت مطمئناً أشد الاطمئنان، فأية صعوبة في مهمتك تلك؟

د. رباح: الخوف من عدم مضي التجربة إلى غايتها بنجاح.. من عدم استكمال البيانات... من ضيق الوقت،

وضرورة المسارعة في اقتناص دقائقه ولحظاته. . لقد قابلت الموت قبل هذا مراراً، فلم يعد يخيفني. .

المغربي: **(بالفرح نفسه)** لقد جمعنا مقداراً طيباً من البيانات والإحصاءات. . إنها ـ بإضافتها إلى تجاربنا القادمة، وبعد تحليلها واستنطاقها ـ ستمنحنا المزيد من المعطيات. . إنني أشكرك أيها الدكتور رغم كل شيء، فلقد علمتني ـ فضلاً عن هذا كله ـ شيئاً أهم من هذا كله، أن منجزات العلم وكشوفه، لا تتحقق إلا بشيئين، الثقة والأمل. . وإنني أدرك ـ الآن ـ مغزى حديث رسولنا العظيم «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم ليغرسها فليغرسها».

د. رباح: **(متمماً)** «فله بذلك أجر». .

المغربي: فله بذلك أجر. .
(يتعثر بالشاب المتأنق المنطرح عند أسفل الحاجز، فيهب هذا قائماً كمن يستيقظ من نوم عميق)

الشاب: ماذا؟ ألم تنم بعد؟ **(يصيخ لصوت الموسيقا المنبعث من داخل الصالة ويصرخ)** الموسيقا. . الموسيقا ثانية. . ما الذي حدث أيها الرفاق؟!

المغربي: لقد بعثنا من جديد..

الشاب: هل معنى هذا أن السفينة ستواصل رحلتها إلى مرسيليا؟

د. رباح: بكل تأكيد..

الشاب: **(يقفز إلى الصالة وهو يصرخ)** سيمون.. لم يبق بيني وبينك سوى ساعات قلائل.. سيمون **(يدخل)**.

د. رباح: **(مشيراً إلى الشاب)** لم يتعلم أي شيء !!

المغربي: لا بأس.. فالمهم هو ما تعلمناه نحن..

د. رباح: إنه نمط آخر من الناس، وهو ـ للأسف ـ أكثرهم عدداً.. أولئك الذين لا يتعلمون شيئاً من الموت!!

(تنزل الستارة، وأصوات الموسيقا العاوية، والرقص المجنون، وتبادل الأنخاب.. تنبعث من الصالة..)

ـ ستار ـ

فهرس الموضوعات